جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

"أسرار تعدد أقوال المفسرين، وتوجيه آرائهم المختلفة"

"دراسة تطبيقية"

إعداد الدكتور

أيمن حسن رجب عبد الغنى

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن بالكلية

مستلة من

حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الواحد والثلاثون، لعام ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٢/٦١٥٧

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

مقدمه

الحمـــد لله ربِّ العـــالمين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ ﴾ (١)

والصلاة والسلام على خير الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد (ﷺ) بعثه الله (ﷻ) فى الأميين ليتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأدى أمانته وبلغ رسالته وخرج للدنيا جيلاً قرآنياً فريداً ملك القرآن قلبه، وصاغ فكره فاتبع هداه حتى ساد الدنيا به، فاستظلت البشرية بظلال حكمه الوارفة حينا لم تحلم به فى تاريخها كلها.

وبعد:-

لقد عرف المسلمون حق المعرفة قيمة هذا الكتاب، ومبلغ ما فيه من هداية، فاتخذوه دستور حياتهم، واعتنوا به عناية بالغة، بتدبر آياته والكشف عن معانيها والوقوف على حكمه وأحكامه وبعض أسراره التى لا تنتهى أبداً، كما أدرك المسلمون منذ أن نزل القرآن الكريم على رسول الله (ﷺ) أن أفضل ما يتسابق فيه المتسابقون هو خدمة كتاب الله (ﷻ) لأنه الهادى إلى الصراط المستقيم، وإلى الحياة الطيبة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، ومن هنا عكف المسلمون وعلماء الأمة على كتاب ربهم جمعاً فى الصدور والسطور، ومدارسة لنصه، لآياته عملاً بقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الكهف آية: (١-٢)

(٢) سورة ص آية: (٢٩)

هذا وقد نفرت طائفة كبيرة من علماء وسلف الأمة يلتمسون فهم كتاب الله (ﷻ) المنزل على نبيه (ﷺ) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، وبفضل الله (ﷻ) وتوفيقه لم يخل عصر مر على المسلمين إلا وأثمر وأينع مصنفات شتى فى هذا المجال كلها تخدم كتاب الله تعالى...

وقد تكلم فى التفسير أقوام وطوائف بينها ما بينها من اختلاف فى فهم كتاب الله تعالى حسب الاستعداد النفسى والعلمى مفسِّر، ومدى تذوقه للنص القرآنى، وكذلك تلمس اختلافاً كبيراً بين المفسرين فى الأفكار والمذاهب الدينية والتوجيهات العقلية والعلمية، ثم نجد بعد ذلك اختلافا فى مقدرة كل مفسر من حيث علومه التى ألم بها، ومن خلالها يطرق باب النص القرآنى ومع اتساع المكان وامتداد الزمان وتنوع الثقافات وكثرة العلماء وظهور المذاهب والفرق المختلفة تعددت أقوال المفسرين واختلفت آراؤهم فى تفسير كتاب الله تعالى، وورث عصرنا الحاضر كماً هائلا من كتب التفسير المشحونة بمختلف الآراء والأقوال والمذاهب والعلوم والمناهج...، وأصبح ذلك الاختلاف مثيراً للدهشة ولافتا للنظر ومستوقفا للفكر والتساؤل.

• ومن هنا كان تعدد أقوال المفسرين واختلاف آرائهم مجالاً جديراً بالبحث والدراسة وخاصة أن هذا الموضوع كان يشغلنى كثيراً مذ كنت طالبا فى مرحلتى الجامعية وأذكر وقتها أننى سئلت من بعض إخواني عن تفسير قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[1] فتتبعت كتب المفسرين لأقف على التفسير الصحيح للآية وإذا بى أجد أن الفخر الرازى[2](رحمه الله) قد ذكر فى

(١) سورة الضحى آية: ٧.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى الرازى الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعى ولد سنة ٥٤٤هـ كان (رحمه الله)=

تفسيرها أقوالا متعددة للمفسرين حتى بلغ بها أكثر من عشرين قولاً[1] كما سنوضح ذلك لاحقا- فأثار ذلك فى نفسى من وقتها عدة تساؤلات عن الأسرار والأسباب الكامنة وراء اختلاف أقوال المفسرين وتعد آرائهم فى التفسير، فأردت أن أتتبع كل الجزئيات المتعلقة بهذا الموضوع من الكشف عن أبرز هذه الأسباب والدوافع التى أهدت إلى هذا الاختلاف، وبيان أنواع ذلك الاختلاف، وأصل نشأته والآثار المترتبة عليه فى التفسير مع الاستشهاد بأمثلة عديدة ورد فيها الاختلاف من كتب المفسرين، وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أيضا إضافة إلى ما سبق قلة المصنفات المستقلة التى ألفت فى هذا الموضوع المتعلق بأسباب تعدد أقوال المفسرين واختلاف آرائهم إلا ما جاء متناثراً فى بعض مقدمات التفاسير وعلوم القرآن...

- كما أردت أن أكشف النقاب عن حقيقة مهمة وهى: أن غالب ما يصح عن السلف من الاختلاف فى التفسير إنما هو من قبيل اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد وعليه فيصح حمل الآية على جميع ما قيل فيها ما دامت معانى صحيحة غير متعارضة....
- بالإضافة إلى أنني أردت أن أنبه هنا إلى ان كثيراً من أسباب الاختلاف بين المفسرين تتعلق باللغة العربية ومدلولات ألفاظها المتعددة، أو تتعلق بالتعصب

=فريد عصره ومتكلم زمانه جمع كثيرا من العلوم فنبغ فيها وكان إماما فى التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة من أبرز مؤلفاته تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب.. توفى سنة ٦٠٦هـ انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٢٦٥-٢٦٨) ط/ دار صاد بيروت ق/ إحسان عباس ١٩٧١م وأيضا التفسير والمفسرون للذهبى (١/٢٦٧) ط/ مكتبة وهبة القاهرة ١٤٠٩هـ.

(١) راجع تفسير الرازى (٣٢/٢١٥-٢١٦) ط/ نشر دار الكتب العلمية. طهران.

المذهبى أو الانتصار للمذهب العقدي أو الاختلاف فى الرواية عن النبى (ﷺ) أو الاختلاف متعلق بالنص القرآنى نفسه كأن يدور حكم الآية بين الأحكام والنسخ، أو يرد فيها قراءات متعددة يترتب عليها اختلاف التفسير.... ونحو ذلك.

فكان هذا الجهد- بعون من الله وتوفيقه- مشاركة فى هذا الموضوع الذى يهم علماء المسلمين جميعا وخاصة العاكفين على دراسة القرآن الكريم أو المهتمين بتدبر آياته والبحث عن أسرارها- وقد جاء عنوان هذا البحث على النحو التالى:-

أسرار تعدد أقوال المفسرين وتوجيه آرائهم المختلفة دراسة تطبيقية

وقد اجتهدت- بقدر طاقتى البشرية- أن أسلك فى هذه الدراسة منهجا علميا دقيقاً يمتاز بالوسطية وسهولة العبارات فحاولت أن أستند بعض الأسرار والأسباب المتعلقة باختلاف المفسرين وتعدد أقوالهم مستعينا- بحول الله وقوته أولاً ثم ببعض الإشارات والعبارات المتناثرة عن هذا الموضوع فى مقدمات التفاسير وعلوم القرآن، وتدعيم تلك الأسباب ببعض الأمثلة والشواهد التى ورد فيها اختلاف المفسرين والتعقيب عليها وبيان الآثار والنتائج المترتبة على ذلك الاختلاف فى التفسير، مع توجيه ذلك الاختلاف والجمع بين هذين الأقوال إن أمكن ذلك، والتنبيه على الأقوال والآراء المستبعدة أو الغريبة إن وجدت.... إتماما للفائدة.

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالى:-

" مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة"

فأما **المقدمة** فبينت فيها: أسباب اختيار الموضوع وأهميته- خطة البحث.
وأما **التمهيد** فيتضمن:- نشأة الاختلاف وتطوره- أسباب قلة اختلاف الصحابة فى التفسير- أسباب الاختلاف فى نظر السابقين

وأما **المبحث الأول** فهو بعنوان:

حقيقة الاختلاف الواقع فى التفسير ويتضمن عدة مطالب:-

المطلب الأول:- المراد بالاختلاف والفرق بينه وبين الخلاف.

المطلب الثانى: التفريق بين الخلاف السائغ وغيره، وأنه ليس كل خلاف بين المفسرين يعتد به.

المطلب الثالث: موقفنا من اختلاف المفسرين

-وتتمة تتعلق بهذه المسألة-

المطلب الرابع: أنواع الاختلاف فى التفسير.

ويتضمن : تعريف كل نوع- أنواع اختلاف التنوع وتوضح ذلك بالأمثلة-وبيان آثار ذلك الاختلاف على التفسير- التأكيد على أن اختلاف السلف فى التفسير من باب التنوع غالباً.

وأما **المبحث الثانى:** فهو بعنوان:-

" أمور متصلة بأسباب الاختلاف فى التفسير"

ويتضمن عدة مطالب:-

المطلب الأول: وجه الصلة بين أسباب الاختلاف وقواعد الترجيح

- أمثلة تدل على ذلك-

وأما **المبحث الثالث** فهو بعنوان:-

أسباب متعلقة بأقوال المفسرين المختلفة- مع توجيه ذلك الاختلاف-

ويتضمن خمسة مطالب:-

المطلب الأول: أسباب متعلقة بالنص القرآنى ويتدرج تحتها ما يأتى:-

١- تعدد القراءات وتنوعها من أسباب الاختلاف فى التفسير

-أمثلة تدل على ذلك-

٢- أن يدور حكم الآية بين الإحكام والنسخ

-أمثلة تدل على ذلك-

٣- أن يأتى اللفظ القرآنى مجملا يحتاج إلى بيان فيختلف المفسرون فى بيان.

-أمثله توضح ذلك-

المطلب الثانى:- أسباب متعلقة بالسنة والآثار والقرائن ومنها ما يأتى:-

١. الاختلاف فى الرواية عن النبى (ﷺ) أمثلة تدل على ذلك.

٢. تفسير المبهمات أو المغيبات فى القرآن بالاسرائيليات الباطلة- أمثلة على ذلك.

٣. مخالفة الآثار الصحيحة المروية فى تفسير الآية أو سبب نزولها- أمثلة على ذلك.

٤. إغفال القول الذى تؤيده القرائن فى سياق الآية- أمثلة توضح ذلك

٥. الاختلاف فى مفهوم عصمة الأنبياء وأثره على التفسير- أمثلة توضح ذلك.

المطلب الثالث:- أسباب متعلقة بلغة العرب ويندرج تحتها ما يأتى:-

١- الاختلاف فى دلالات الألفاظ والنصوص لكون اللفظ مشتركاً.

- أمثلة توضح ذلك من كتب التفسير-

٢- الاختلاف فى وجوه الاعراب وأثره فى التفسير

-أمثلة توضح ذلك-

٣- أن يحمل اللفظ القرآنى أكثر من اشتقاق أو تصريف فى اللغة.

-أمثلة توضح ذلك-

٤- تفسير اللفظ بمعانيه الظاهرة أو المحتملة.

- أمثلة تدل على ذلك-

٥- أن تحتمل الآية التقديم والتأخير معاً

-أمثلة توضح ذلك-

٦- أن تحتمل الآية الحقيقة والمجاز معاً

- أمثلة توضح ذلك-

٧- أن يدور حكم الآية بين الإطلاق والتقييد

- أمثلة توضح ذلك-

٨- أن يدور حكم الآية بين العموم والخصوص.

- أمثلة توضح ذلك-

٩- التعبير فى الآية بوصف يحتمل أكثر من موصوف.

- أمثلة تدل على ذلك-

١٠- الاختلاف بين المفسرين فى تعيين مرجع الضمير.

- أمثلة توضح ذلك-

١١- أن يكون فى الآية القرآنية حذف يحتمل فى تقديره أكثر من معنى

- أمثلة توضح ذلك-

١٢- اختلاف التفسير بسب الاختلاف فى نوع الاستثناء وما يعود إليه

- أمثلة توضح ذلك-

١٣- اختلاف المفسرين فى معانى الأدوات والحروف يترتب عليه اختلاف التفسير

- أمثلة توضح ذلك-

١٤- اختلاف المفسرين فى الألفاظ التى يوهم ظاهرها الزيادة أوعد مها.

المطلب الرابع:- أسباب متعلقة بالاختلاف العقدى وانتصار بعض المفسرين لمذهبهم العقدى ويتضمن:- نبذة مختصرة عن نشأة الاختلاف العقدى.

أمثلة ونماذج من كتب بعض المفسرين تدل على ذلك.

المطلب الخامس:- أسباب متعلقة بالتعصب المذهبى الفقهى.

-أمثلة من كتب بعض المفسرين تدل على ذلك-

الخاتمة: وتتضمن: ثمرة البحث ونتائجه- **أهم الفهارس.**

هذا، ولقد بذلت قصارى جهدى فى سبيل إعداد هذا البحث وإتمامه، فإن وفقت فبتوفيقه سبحانه وحده، وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان وحسبى أنى حاولت واستفرغت ما فى وسعى ولكن الكمال لله وحده، ودعائي ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة آية ٢٨٦- كما أرجو من القارئ الكريم أن يلتمس لى العذر فى أى قصور فى هذا البحث نظرا لقلة المراجع المستقلة التى أفردت للحديث عن أسباب تعدد أقوال المفسرين واختلافهم- وأستغفر الله العظيم لى ولوالدي وللمؤمنين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دكتور

أيمن حسن رجب عبد الغنى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

التمهيد

نشأة الاختلاف وتطوره:-

مما لا شك فيه أن الاختلاف سنة فى البشر، وكل شخص ينظر إلى المسألة من زاوية ويحكم عليها حسب نظره واجتهاده، وبناء عليه لم يكن الصحابة (ﷺ) ولا الناس من بعدهم أيضا على درجة واحدة فى فهم القرآن الكريم بل كانوا يتفاوتون فى ذلك، فقد كان يشكل على بعضهم ما لا يشكل على الآخر. ويرجع ذلك إلى تفاوتهم فى معرفة اللغة العربية وأسرارها، ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول زد على ذلك تفاوتهم فى القدرة العقلية شأن البشر كلهم ولو تساوت الأذهان والعقول فى إدراك معانى القرآن وفهمها لبطل التنافس وخمدت الهمم لزوال ما يحملها على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر لكن الله جلت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتمل أحيانا معانى كثيرة وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ومن هنا تنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم فى تفسير آيات القرآن لينالوا الأجر العظيم والثواب الجزيل ولا يخفى أن للصحبة منزلتها العظمى فى الإسلام، ولها شرف لا يخفى على مسلم، إذ يكفى فيها لقيا رسول الله (ﷺ) ولذا كان للصحبة فى ميزان المسلمين بعدهم مكانة خاصة، وصار لقولهم قبولا وحجة[2] وذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال

---

(١) سورة محمد آية: ٢٤.

(٢) الذى عليه أهل العلم أن أقوال الصحابة فى التفسير لها حكم المرفوع على النبى(ﷺ) بشرط أن يكون قول الصحابى مما لا مجال للرأي فيه كأسباب النزول.... وألا يكون الصحابى معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا أى غير معروف برواية الاسرائيليات والموضوعات" انظر: التفسير والمفسرون للذهبى (٩٦/١) بتصرف ط/=

التى اختصوا بها وقت نزول القرآن، فهم قد شاهدوا التنزيل وعرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن فأدركوا أسباب نزوله ومناسباته بالإضافة إلى ما لهم من الفهم التام وسلامة القصد وقوة الإيمان، وأنهم هم أهل اللسان الذى نزل به القرآن، فقد كان الصحابة (ﷺ) يفهمون القرآن الكريم بمقتضى السليقة واللسان العربى، وإذا أشكل عليهم معنى سألوا الرسول (ﷺ) فبينه لهم، وكانوا (ﷺ) يجتهدون فى استنباط معانى ودلالات بعض الآيات القرآنية ويتفاوتون فى ذلك- كما بينا سابقا- نتيجة تفاوتهم فى معرفة أسباب النزول وما أحاط بالآية من أحداث وملابسات فضلا عن تفاوت القدرات العقلية والحصيلة العلمية، بأنهم شأن البشر، ولذا فقد كان يقع بينهم اختلاف فى التفسير إلا أن هذا الاختلاف كان قليلاً[1] ولقلة هذا الاختلاف عدة أسباب يجملها فيما يأتى:-

أسباب قلة اختلاف الصحابة فى التفسير:-

أولاً: وجود الرسول (ﷺ) بينهم ورجوعهم إليه فيما أشكل عليهم أو اختلفوا فيه فقد كان (ﷺ) يبين لهم الغامض ويوضح لهم المشكل ويزيل ما بينهم اختلاف حتى لا يبقى له أثر وصدق الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

=مكتبة وهبة. القاهرة الرابعة-١٤٠٩هـ-١٩٨٩م وأيضا: الاسرائليات والموضوعات د/ محمد أبو شبهه (٧٩) ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

(١) انظر: بحوث فى أصول التفسير ومناهجه د/ فهد الرومى (٤١) بتصرف- مكتبة التوبة- الرياض ط/ ٣-١٤١٦هـ.

(٢) سورة النحل آية: ٤٤.

ثانياً: أن النبى (ﷺ) كان ينهاهم عن كل ما يؤدى إلى الاختلاف فى القرآن ومما يدل على ذلك ما أخرجه أحمد فى مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده" أن نفراً كانوا جلوسا بباب النبى (ﷺ) فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله (ﷺ) فخرج فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان فقال:" أبهذا أمرتم؟- أو بهذا بعثتم- أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا إنكم لستم مما ههنا فى شئ، انظروا الذى أمرتم به فاعملوا به، والذى نهيتم عنه فانتهوا عنه"(١)

وجاء عن عبد الله بن عمرو أيضا- كما أخرجه الإمام أحمد- أنه قال:" هجرت إلى رسول الله (ﷺ) يوما فإنا لجلوس إذا اختلف رجلان فى آية فارتفعت أصواتهما فقال:" إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب"(٢)

ثالثا: سعة علم الصحابة الشرعى ومعرفتهم للغة العربية وأساليبها ومعانيها مما يسر لهم معرفة كثيرا من الآيات بمقتضى اللسان العربى، بالإضافة على أنهم- كما وضحنا سابقا- شهدوا التنزيل وعرفوا أحواله، وأحوال من نزل فيهم القرآن من العرب واليهود، وأيضا ما اختصوا به من قوة الإيمان وحسن الفهم وسلامة القصد فهذه الأسباب جميعها جعلتهم ابعد عن الخلق غالبا وأقرب للصواب، وأقدر على فهم مدلول الخطاب

رابعاً: قلة الأخذ بالاسرائليات وتناولها فى تفسير الصحابة لحرصه (ﷺ) على اقتصار أصحابه على نبع الإسلام الصافى الذى لم تكدره الأهواء ولم تشبه

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٩٥/٢-١٩٦) ط/ المكتب الإسلامي. دار الفكر. بيروت.

(٢) المصدر السابق (١٩٢/٢).

الاختلافات والافتراءات يدل على هذا المقصد غضبه (ﷺ) حين رأى فى يد عمر (رضي الله عنه) صحيفة من التوراة. [1] فكان لهذا السبب أثره فى قلة اختلاف الصحابة فى التفسير.

خامساً: أن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا لا يتكلفون التفسير ولا يتعمقون فيه تعمقا مذموماً، فقد كانوا يكتفون فى بعض الآيات بالمعنى العام ولا يلتزمون بالتفضيل فيما لا فائدة كبيرة فى تفصليه، فيكتفون مثلا بمعرفة أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾[2] أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده [3]

سادساً: تأثير العصر والبيئة عليهم، فإن للعصر تأثيره على أبنائه، ومن المعلوم أن عصر الصحابة- رضوان الله عليهم- هو خير العصور وأفضلها، ويكفى أن نذكر من وجوه خيرتيه وفضله لقيا النبى (ﷺ) وشرف الحديث معه والجلوس بين يديه...، أضف على ذلك- كما بينا سابقا- ما أختص به الصحابة (رضي الله عنهم) من قوة الإيمان وحسن الفهم والعمل الصالح وسعة العلم بالقرآن والسنة والعمل بهما وما شاهدوه من أحوال التنزيل والقرائن وفهمهم للقرآن بمقتضى السليقة واللسان العربى... وقد قيل: كلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والاتفاق أكثر وأكبر، وكان الاختلاف أقل وأخف.

---

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (٤٨/٢) بيروت مؤسسة الرسالة- وأيضا مسند أحمد (٣٨٧/٣).

(٢) سورة عبس الآية: ٣١.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣ ص٣٧٢ جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدى الحنبلى وساعده ابنه محمد – تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1](رحمه الله): "كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وكلما كان العصر اشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر"[2]

ولهذا نرى الاختلاف يزداد ورقعته تتسع كلما امتد الزمان واتسع المكان وتكاثرت الأجيال وتوافرت الأخبار وتزاحمت الأفكار ووجهات النظر.[3]

ومن هنا تعددت أقوال المفسرين وكثرت، وازدادت مصنفاتهم فى تفسير كلام اللطيف الخبير واتسعت خاصة مع شغف طائفة من المفسرين بالاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية،والتوسع فى ذلك بعد عصر الصحابة، وأيضا مع نشأة الاختلاف المذهبى والانتصار للمذاهب العقدية بما جاء فى كتاب الله

(١) هو الإمام أحمد بن عبد السلام تقى الدين بن تيمية ولد بحران سنة ٦٦١هـ ت، وفر أهله من تستر وهم يحملونه سنة ٦٦٧هـ، إلى دمشق وفيها نشأ وبدأ حياته العلمية والدعوة على الله وشارك فى حروب التتر وتصدى لطوائف الضلال والبدع وللكفار من النصارى واليهود... وناظر العلماء والفلاسفة ودافع عن العقيدة الإسلامية دفاع الشجاع المستميت وكان أعجوبة فى كل فن... وزج به فى سجون الشام والقاهرة ولم يزد له ذلك إلا إصراراً فى الحق حتى توفى بسجن دمشق سنة ٧٢٨هـ انظر فى ترجمة: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى ج١ (٦٣-٧٢) ط/السعادة ١٣٤٨.

(٢) انظر فى ذلك: مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٣٧ بتحقيق د/ عدنان زووز الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م دار القرآن الكريم. الكويت.

(٣) أشار الى ذلك د/ محمد الشايع فى كتابه أسباب اختلاف المفسرين ص(٩) مكتبة العبيكان الرياض ط/ ١٤١٦هـ.

بعد عصر الصحابة[١] كل ذلك أدى إلى اختلاف وجهات النظر وتنوع التفسير ونشأة الاختلاف بين المفسرين فى الآراء والأقوال... وسنبين فيما بعد تلك الأسباب التى أدت إلى ذلك بالتفصيل.

أسباب الاختلاف فى نظر السابقين:

بداية أود أن أنبه هنا إلى حقيقة مهمة وهى انه قد وقع الاختلاف فى التفسير كما وقع فى الأحكام ولهذا الاختلاف أسباب أوجبته، وعلل أوجدته، يؤكد تلك الحقيقة صاحب كتاب الإكسير فى علم التفسير- وهو الشيخ الطوفى[٢](ﷺ) وذلك عندما ذكر مثالاً على اختلاف الأئمة الفقهاء فقال"... وإذا جاء مثل هذا فى مذاهب الفقهاء جاز مثله فى مذاهب المفسرين لاشتراكهما فى السبب وكونهما من الدين"[٣] إلا أنه يفرق بينهما بأن الاختلاف فى الأحكام أوسع وأكبر وأثره أوضح وأبين ولذلك اتسعت دائرة التأليف فيه بحثا عن علله وأسبابه،ومقارنة بين مذاهبه، وبياناً لمسائله على وجه التفصيل ومن الكتب التى ألفت فى بيان أسباب الاختلاف فى الأحكام أو على وجه العموم ما يأتى:

---

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى: التفسير والمفسرون للذهبى ج١ (٩٧-٩٨) بتصرف- مطبعة وهبة.

(٢) هو سليمان بن عبد القوى الصرصرى الطوفى ولد بقرية طوفى من أعمال صرصر من سواد بغداد سنة ٦٥٧هـ كان فقيها وشاعراً وأديبا وله مصنفات كثيرة منها جدل القرآن، وبغية الواصل فى معرفة الفواصل، وكتابه الإكسير فى علم التفسير...." انظر ترجمته فى: الدر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ج٢ ص٢٤٩ ط/ دار الكتب الحديثة. مصر تحقيق/ محمد سيد جاد الحق.

(٣) الإكسير فى علم التفسير لسليمان بن عبد القوى الطوفى ص(٨) بتحقيق عبد القادر حسين- المطبعة النموذجية- مكتبة الآداب. القاهرة.

١. من أهمها رسالة ابن السيد البطليوسى ت(٥٢١هـ) التى سماها" الإنصاف فى التنبيه على المعانى والأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم" وترجع أهميتها على أنه ذكر فى بعض الأسباب آيات اختلف المفسرون فيها وبين سبب اختلافهم.

٢. كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) ت (٧٢٨هـ)

٣. أسباب اختلاف الفقهاء للشيخ على الخفيف.

٤. الإنصاف فى أسباب الاختلاف لولى الله احمد بن عبد الرحيم العمرى الأهلوى المتوفى سنة(١١٧٦هـ)

٥. اختلاف العلماء للإمام بن قصر المروزى ت(٢٩٤هـ) [١]... إلخ.

وأما المؤلفات فى أسباب الاختلاف فى التفسير خاصة أو على وجه الاستقلال فهى قليلة جداً، فهذا ميدان أغلفه الأئمة السابقون المصنفون فى تفسير القرآن وعلومه فلم يفردوه بالكتابة والتصنيف مع عظيم موقعه وجليل مكانته ودفعه الشبهات والمطاعن التى تسدد نحو التنزيل من أعداء الإسلام بإثبات ان هذا الاختلاف فى التفسير سائغاً، وانه اختلاف لا يؤدى إلى الفرقة أو المعادة، ومن هنا فقد جاءت المؤلفات فى هذا المجال قليلة جداً أو نادرة إلا ما جاء

(١) انظر: اختلاف العلماء لأبى نصر المروزى ص (٨-١١) بتحقيق/ السيد صبحى السمرائى وقد ذكر فى مقدمة التحقيق كتبا كثيرة فى الاختلاف منها الموسوعات الفقهية كالمغنى لابن قداسة، والمحلى لابن حزم والحاوى للماوردى وهذه كتب خلاف ولا تختص بالأسباب، وأشار إلى ذلك د/ محمد الشايع فى كتابه أسباب اختلاف المفسرين(١٠).

متناثراً عن طريق الإشارة أو الأمثلة أو بعض العبارات فى بعض مقدمات التفاسير وعلوم القرآن فى مقدمة تفسيره لكن ذكرها بلا أمثلة[١]

ولشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) كلام طيب فى أسباب الاختلاف وأنواعه فى كتابه" مقدمة فى أصول التفسير".[٢]

وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى (ت٧٩٠هـ) – فى كتابه– الموافقات أنواع الاختلاف الواقع فى التفسير ثم فصل القول فى اختلاف التنوع وجعله من قسم الخلاف الذى لا يعتد به. [٣] أيضا للإمام سليمان بن عبد القوى الطوفى فى كتابه المعروف فى أصول التفسير ومناهجه والمسمى ب: الإكسير فى علم التفسير بعض الإشارات فى ذكر بعض أسباب الاختلاف. [٤] ويمكن الاستفادة فى هذا الموضوع مما كتب فى أسباب اختلاف العلماء على وجه العموم، ومن أهمها – كما قلنا– رسالة ابن السيد البطليوسى التى سماها: "الإنصاف فى التنبيه على المعانى والأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم" وترجع أهميتها إلى أنه ذكر فى بعض الأسباب آيات اختلف المفسرون فيها وبين سبب اختلافهم.

---

(١) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الغرناطى (١٥/١) بتحقيق/ محمد اليونسى– وإبراهيم عطوة عوض. مطبعة حسان.

(٢) مقدمة فى أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٨–٥٥) بتحقيق د/ عدنان زرزور.

(٣) الموافقات للشاطبى (١٤٠/٤–١٤٤) تحقيق/ محيى الدين عبد الحميد– الناشر مكتبة محمد على صبيح واولاده.

(٤) انظر: الإكسير فى علم التفسير للطوفى ص(٦) وما بعدها.

وأما فى العصر الحديث فإن المؤلفات فى أسباب الاختلاف بين المفسرين استقلالا فيما اطلعت عليه قليلة أو محدودة للغاية بالنظر إلى أهمية الموضوع. (١)

والحق أن أسباب الاختلاف أوسع من أن يحيط بها أبناء جيل أو أجيال من البشر نظراً بالنص القرآني وهو حمال أوجه عديدة، فهذه مجرد خواطر أو اجتهادات يمن الله بها على من يشاء من عباده ولذا آثرت التعبير بلفظ " أسرار" فى عنوان البحث للدلالة على أن اختلاف المفسرين له أسراره وأسبابه التى لا تنتهي ولا يمكن أن يحيط بها أحد من البشر.

(١) من هذه المؤلفات القليلة التى وقفت عليها: كتاب الدكتور/ محمد الشايع فى أسباب الاختلاف....، وأشار أيضا فى كتابه ص(١١) إلى أن الشيخ الفنيسان له رسالة قيمة فى اختلاف المفسرين وأسبابه وأنها لم تنشر بعد، ولم أطلع عليها....بالإضافة إلى ما أشار إليه مشايخنا الأجلاء فى حديثهم عن أصول التفسير ومناهجه- فجزاهم الله جميعا خيراً.

المبحث الأول
حقيقة الاختلاف الواقع فى التفسير

المطلب الأول: المراد بالاختلاف والفرق بينه وبين الخلاف.

جاء فى لسان العرب:"... وتخالف الأمران واختلفا: لم يتفقا. وكل ما لم يتساوى فقد تخالف واختلف...، والخلاف: المضادة... ويجوز أن يريد به الذى لا خير عنده"(١)

وقيل: اختلف خلفه واختلافا إلى الشئ: كثر ترداده. و- إلى الخلاء: فسدت معدته فكثر ترداده على المتوضإ. و-: ضده اتفق والاسم الخلف. (٢) والخلاف: مصدر" المضادة، والاختلاف: صنف من شجر الصفصاف وليس به. و- من كل شئ : ما بعده. و-: وسط كم القميص: تخالف الرجل اليسرى واليد اليمنى أو العكس فى القطع والتحجيل. (٣)

وعلى ذلك فأصل الخلاف والمخالفة واحد وهو خلف والخلاف المضادة وقد خالفه مخالفة وخلافا، ويقال: تخالف القوم واختلفوا إذا ذهب كل واحد على خلاف ما ذهب إليه الآخر وهو ضد الاتفاق، والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ وقالوا: إن الخلاف أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان وليس كل ضدين ولما كان الاختلاف بين الناس فى القول قد يقتضى التنازع استعير ذلك للمنازعة

---

(١) لسان العرب لابن منظور المجلد الرابع (١٨٨-١٩٠) ط/ ثانية دار إحياء التراث العربي- مؤسسة التاريخ العربي بيروت. لبنان ١٤١٣هـ-١١٣م.

(٢) معجم متن اللغة للعلامة اللغوي الشيخ أحمد رضا المجلد الثاني ص(٣٢١) مادة (خلف) ط/ دار مكتبة الحياة بيروت ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

(٣) المصدر السابق مج ٢(٣٢٣).

والمجادلة قال تعالى: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] وقيل أيضا: الاختلاف افتعال من الخلف وهو ما يقع من افتراق بعد اجتماع فى أمر من الأمور[2] وعلى ذلك فالخلاف والمخالفة كلمتان تستعمل كل منها فى محل الأخرى غير أن المتتبع يجد ان كلمة خالف تستعمل فى حالة العصيان الواقع عن قصد كمن يخالف الأوامر قال تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[3] ولم يقل: يختلفون فى أمره، أما كلمة" اختلف" فتكون فى حالة المغايرة فى الفهم الواقع من تفاوت وجهات النظر وعليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ ﴿٦٤﴾ ﴾[4] ولم يقل سبحانه "خالفوا فيه" وقوله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ ﴿٢١٣﴾ ﴾[5] فجعله تعالى اختلافا لا مخالفة وذكر فى كل موضع ما يناسبه. [6] والذى نخلص به من هذا التأصيل لحقيقة الاختلاف والفرق بينه وبين الخلاف: أن الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة وإنما المراد منه أن تختلف الوسيلة مع كون الهدف واحدا، وهو مغير للخلاف الذى ينطوى

---

(١) سورة مريم آية: ٣٧.

(٢) الإنكار فى مسائل الخلاف بمجلة البحوث الإسلامية تأليف مجموعة من العلماء العدد ٤٧ (٢٠١-٢٠٢) الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالمملكة العربية السعودية – الإصدار من ذو القعدة إلى صفر ١٤١٦-١٤١٧هـ.

(٣) سورة النور آية: ٦٣.

(٤) سورة النحل آية: ٦٤.

(٥) سورة البقرة آية: ٢١٣.

(٦) الإنكار فى مسائل الخلاف (٢٠٢-٢٠٣) بتصرف.

على معنى الشقاق والنزاع فى الرأى دون دليل، أو يمكن أن يقال الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفا والمقصود واحدا، والخلاف أن يكون كلاهما- اى الطريق والمقصود – مختلفين وقيل: الاختلاف ما يستند إلى دليل والخلاف ما لا يستند إلى دليل، والاختلاف آثار الرحمة والخلاف من آثار البدعة والهوى والتعصب[1] ...، ويضاف إلى ذلك أن الخلاف يقع غالبا فى محل لا يجوز فيه الاجتهاد وهو ما كان مخالفا للكتاب والسنة والإجماع وهذا خلاف لا عذر فيه وصاحبه يعامل بما يعامل به أهل البدع[2].

والذى نود أن نؤكد عليه بما لا يدع مجالا للشك أن الأئمة فى مناهجهم وأساليب عرضهم لم يخالفوا نصا من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) اقتداء منهم بسيرة الخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين، وهم بهذا لم يختلفوا ليخالف بعضهم بعضا أو يخطئ بعضهم بعضا إنما اختلفوا فى سبيل الوصول إلى الحق وتحقيق مقاصد الشرع بما يتوصلون إليه فى فهم كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وخاصة فى مواطن الاحتمال ومسائل الاجتهاد والاستدلال.

(١) انظر: أدب الاختلاف فى الإسلام د/ طه جابر العلوانى ص (٢٧) بتصرف وقد ذكر أن التعصب والهوى من دوافع الخلاف النفسية. ط/ أولى ١٤٠٥هـ- قطر.

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية ج ٤ ص(١٧٢-١٧) بتصرف.

المطلب الثانى
التفريق بين الخلاف السائغ وغيره، وأنه ليس كل خلاف بين المفسرين يعتد به

ثمة أمور يفترق فيها الخلاف الذى سوغه العلماء عن الخلاف الذى قبحه العلماء وذموه غاية الذم ومنها:-

١- أن الخلاف السائغ لا يكون فى المسائل الأصولية فى الدين، العقدية منها والفقهية كالوحدانية وأصول الإيمان وحجية السنة وفرضية الصلاة أو فرضية الوضوء للصلاة فمثل هذه المسائل قد تضافرت الأدلة الصريحة على إثباتها. يبين الشاطبى الفرق بين الخلاف المسوغ وغيره بقوله" وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق عليها عادة فالظنيات عريقة فى إمكان الاختلاف فيها لكن فى الفروع دون الأصول وفى الجزئيات دون الكليات فلذلك لا يضر هذا الاختلاف"(١)

٢- أن الخلاف السائغ لا يكون فى المسائل التى انعقد الإجماع فيها كعلو الله وكلامه جل وعلا فإن وقع خلاف من مجتهد فى مثل هذا فهو اجتهاد يعذر فيه لكنا لا نسوغه،يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:" من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع"(٢)

---

(١) الاعتصام للشاطبى (١٦٨/٢).

(٢) الفتاوى لابن تيمية ج٤ (١٧٢-١٧٣).

وجاء فى سير أعلام النبلاء " ما زال العلماء يختلفون يتكلم العالم فى العالم باجتهاده وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور وإلى الله ترجع الأمور"(١)

٣- أن يكون هذا القول صادراً عن الاجتهاد والنظر فى الأدلة الشرعية المعتبرة بقصد الوصول إلى الحق الذى أراده الله ورسوله (ﷺ) وعليه فلا كرامة لمن صدر فى رأيه عن العقل المجانب للشرع أو عن الرؤى المنامية ولا لمن صدر عن الهوى أو العصبية. قال الشاطبى" الاجتهاد الواقع فى الشريعة ضربان: **أحدهما:** الاجتهاد المعتبر شرعا وهو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر الاجتهاد إليه، **والثانى:** غير المعتبر وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه لأن حقيقة انه رأى بمجرد التشهى والأغراض وخبط فى عماية وإتباع للهوى فلكل رأى صدر على هذا الوجه فلا مرية فى عدم اعتباره لأنه ضد الحق الذى انزله الله كما قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿٤٩﴾ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣) انتهى كلامه"(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣٢٧/١٩) ط/ مؤسسة الرسالة. تحقيق الأرنـــؤوط ط/ ١١ سنة ١٤١٧-١٩٩٦م.

(٢) سورة المائدة آية:٤٩.

(٣) سورة ص آية:٢٦.

(٤) الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى (١٦٧/٤) بتصرف. شرح عبـــد الله دراز- ط/ دار المعرفة بيروت. لبنان.

وبناء على ذلك فليس كل خلاف فى التفسير يعتد به وإنما لابد أن يكون لهذا الاختلاف أسبابه التى أوجدته وجعلته سائغا، وله خط من النظر ومن ورائه ثمرة أو فائدة، فلا عبرة بخلاف لا جدوى من ورائه سوى الفرقة أو التعادى كما يثير بعض المفسرين خلافاً حول لون كلب أصحاب الكهف أو اسم أم موسى(عليه السلام)، أو أسماء أصحاب الكهف... وغير ذلك وهى أمور لا سبيل إلى العلم بها إلا النقل الصحيح ولو كانت هناك أدنى فائدة من وراء العلم بها للمسلمين لأفصح الله عنها أو ثبتت بالدليل القاطع. ومن هنا فإن الخلاف فى أصل نشأته إذا كان معلوماً للمجتهدين يرجع إلى أحد شيئين:

الأول: اختلاف المجتهدين فى الفهم.

الثانى: أن يكون النص محتملا لأكثر من معنى(١).

إذا فالخلاف منه ما يرجع إلى المجتهد نفسه فى فهمه فقد يكون هذا الفهم فبنيا على أسباب غير سائغة كالتعصب المذهبى أو إتباع الهوى أو نحو ذلك (٢) ومنه ما يرجع إلى النص القرآنى نفسه فى احتماله لأكثر من معنى ويكون ذلك الاختلاف من باب التنوع فكثيراً ما نجد المفسرين ينقلون عن السلف فى معانى ألفاظ القرآن أقوالا مختلفة فى الظاهر فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد وكلما أمكن الجمع بين اقوال المفسرين المتعددة من غير إخلال

(١) انظر: فصول فى أصول التفسير لمساعد الطيار (٦٣) بتصرف. ط/ دار النشر الدولى. الرياض ط/١ (١٤١٣-١٩٩٣م).

(٢) الخلاف من حيث دوافعه النفسية أنواع: خلاف حق دوافعه الصدق، خلاف تعصب وتمذهب، خلاف هوى" انظر: أدب الاختلاف فى الإسلام د/ طه العلوانى ص٢٧ طبعة أولى ١٤٠٥هـ قطر.

بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه- وسنبين ذلك عند الحديث عن أنواع الاختلاف فى التفسير بالتفصيل .

إذاً لا يعتد بالاختلاف فى التفسير إلا بما كان مبنيا على أسباب وقواعد صحيحة لا تخالف المقطوع به فى الشريعة أو الثابت فى الكتاب والسنة وما هو مجمع عليه من سلف الأمة ويتعلق بأصول وثوابت هذا الدين.. والله أعلم.

المطلب الثالث

موقفنا من اختلاف المفسرين

بناءً على ما ذكرنا سابقا نقول: إن الخلاف من حيث موقفنا منه على ضربين:

أحدهما: خلاف مقبول.

والثانى: خلاف مردود أو غير مقبول.

وكما قلنا أيضا إن المعول عليه فى قبوله أورده هو النظر إلى علله وأسباب ودوافعه فإن كان مبنيا على أسباب أوجبته أو علل أوجدته أو أمور مشروعة وجائزة وأسس وقواعد صحيحة واستنباطات سليمة فهو خلاف جائز ومقبول من أهل الوقوف على الحقيقة والرأى الصواب وأن كان هذا الخلاف مبنيا على أسباب غير مشروعة أو مباحة أو كان مبنيا على أمور غير سائغة من التعصب المذهبى أو التعصب لشخص بعينه أو إتباع للهوى أو ابتداع أو انحراف فكر أو قصورهم فهم أو علم أو إتباع عقيدة باطلة أو غير ذلك فإن هذا الخلاف مردود كسببه تماماً.

ومن الأخطاء المورثة للأهواء والمؤدية إلى الضرر كون كل واحد من المختلفين مصيبا فيما يثبته أو فى بعضه مخطئا فى نفى ما عليه الآخر فأكثر الجهل إنما يقع فى النفى الذى هو جحود وتكذيب لا فى الإثبات لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر عليه من إحاطته بما ينفيه. [1] ولذلك نهيت هذه الأمة عن

(١) راجع : أسباب اختلاف المفسرين د/ محمد الشايع (١٥) بتصرف.

ضرب آيات الله بعضها ببعض لأن مضمون الضرب الإيمان بإحدى الآيتين والكفر بالأخرى إذا اعتقد أن بينهما تضاداً إذ الضدان لا يجتمعان. (١)

فيفهم مما تقدم: أن الاختلاف يكون معتبراً ومقبولاً وقائله مصيب إذا كان لأسباب أوجنته وكان مبنيا على قواعد صحيحة غير مخالفة للمقطوع به فى الشريعة وفى ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:" وهذا القسم- الذى سميناه اختلاف تنوع- كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه... (٢)

وقد أجاد الشاطبى أيضا حين قرر أن بعض أنواع الاختلاف مما لا يحسن عده خلافا وفى ذلك يقول:"من الخلاف ما لا يعتد به، وهو ضربان:

أحدهما: ما كان من الأقوال خطأ مخالفا لمقطوع به فى الشريعة...

والثانى: ما كان ظاهره الخلاف وليس فى الحقيقة كذلك وأكثر ما يقع ذلك فى تفسير الكتاب والسنة فتجد المفسرين ينقلون عن السلف فى معانى ألفاظ الكتاب أقوالا مختلفة فى الظاهر فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد والأقوال إذا أمكن اجتماعها والقول بجميعها من غير إخلال بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها... (٣)

وعلى ذلك فليس كل اختلاف فى ألفاظ هو اختلاف فى الأقوال، وليس كل اختلاف فى العبارات هو اختلاف فى المرادات لأن بعض الناس لم يفطن إلى ذلك وظن أنه إذا لم توافق الكلمة يكون هذا من قبيل الاختلاف والحقيقة ليست

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية (١/١٢٩) بتصرف. ط/١ مكتبة الرشد الرياض. ق. د/ ناصر العقل.

(٢) المصدر السابق (١/١٣٥).

(٣) الموافقات للشاطبى (٤/١٤٠).

كذلك لأنك إذا تدبرت هذه الأقوال جيداً وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد وانه يمكن الجمع بين هذه الأقوال المتعددة من غير إخلال بالمراد.

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب البرهان بقوله" يكثر فى معنى الآية أقوالهم واختلافهم ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ ويظن من لا فهم عنده أن فى ذلك اختلافا فيحكيه أقوالاً وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه اظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يخبر عن الشئ بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالبا والمراد الجميع فليتفطن لذلك ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلافا المرادات كما قيل: عباراتنا شتى وحسنك واحد:. وكل ذلك الجمال يشير... وكثيراً ما يذكر المفسرون شيئا فى الآية على جهة التمثيل لما دخل فى الآية فيظن بعض الناس أنه قصر الآية على ذلك"[1]

تتمة تتعلق بهذه المسألة:.

أقول: إذا ما وقع الاختلاف لأسباب أوجبته سواء فى التفسير أو غيره فإنه ينبغى ثمة الالتزام بجملة من الآداب ينبغى على علماء المسلمين وعامتهم مراعاتها والقيام بحق المخلف فيها ومنها: إحسان الظن بالعلماء وأن لا يعتقد أنهم تعمدوا ترك الحق الذى بن له – وقد يكون هو المخطئ – وعليه فلا يعتقد هلكتهم فى خلافهم له بل يلتمس لهم العذر فى ذلك ومنها لا يؤدى ذلك الخلاف إلى جفوة أو فتنة بين المختلفين وفى ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية" وقد كان من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا فى الأمر اتبعوا أمر الله فى قوله:

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى (٢/١٥٩-١٦٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبـــراهيم الطبعة الثانية ١٣٩١هـــ-١٩٧٢م. دار المعرفة. بيروت. لبنان.

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾[1] وكانوا يتناظرون فى المسالة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين، فهم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعتذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع... وأما الاختلاف فى الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كل ما اختلف مسلمان فى شئ تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة"[2]

- ومن جملة هذه الآداب أيضا أن لا ينكر على المجتهد فى اجتهاده وعمله بهذا الاجتهاد ولا يمنع من إقامة الحجة عليه أو المحاورة معه للخروج من الخلاف والوصول إلى الحق بل هو الأولى... وفى ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا:" مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه"[3]
- ومنها: العمل على رفع الخلاف بالوسائل الشرعية طلبا للحق وحفظا لوحدة المسلمين مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[4] الآية كما ينبغى على المسلم أن يذعن لقبول الحق ولا يرده وأن يرجع عن رأيه أو قوله إن تبين له

---

(١) سورة النساء آية: ٥٩.

(٢) مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مجلد ٢٤(١٧٢-١٧٣) تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

(٣) المصدر السابق: (٢٠/٢٠٧)..

(٤) سورة النساء: آية٥٩

أنه كان مخطئاً فيه – وقد ذكرنا جملة من هذه الآداب حتى تكتمل الفائدة ومن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب المعنية فى ذلك[١]

(١) من جملة هذه الكتب: أدب الاختلاف فى الإسلام د/ طه جابر العلوانى، وأيضا: لشيخ الإسلام ابن تيمية جهود مشكورة وسبق طيب فى تناول جملة من أدب الاختلاف فى كتابه الفتاوى وكتابه رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ومنها أيضا: الآداب الشرعية لابن مفلج... إلخ.

المطلب الرابع
أنواع الاختلاف فى التفسير

أشرنا سابقا إلى أن الاختلاف سنة فى البشر وأن كل شخص ينظر إلى المسألة من زواية ويحكم عليها حسب اجتهاده ووجهه نظره بناءً عليه يمكن تقسيم الاختلاف الواقع فى التفسير إلى قسمين كما قرر جمهور العلماء وهما:-

الأول: اختلاف التنوع.

الثانى: اختلاف التضاد.

تعريف كل نوع:-

وأما اختلاف التنوع فهو: أن تحمل الآية على جميع ما قيل فيها ما دامت معانى صحيحة غير متعارضة.وغالب ما يصح عن السلف من الاختلاف فى التفسير يرجع إلى هذا النوع وهو أيسر أنواع الاختلاف. [1] وقد أشار إلى أن اختلاف السلف فى التفسير يكون غالبا من باب التنوع: إسحاق، وسفيان بن عيينة، والحسن وغيرهم ونقل ذلك عنهم الإمام محمد بن نصر المرزوى ت(٢٩٤هـ) حيث قال: وسمعت إسحاق يقول فى قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴿٥٩﴾﴾ [2] قد يمكن أن يكون تفسير الآية على أولى العلم، وعلى أمراء السرايا لأن الآية الواحدة يفسرها العلماء على أوجه وليس ذلك باختلاف. ثم قال: وقد قال

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية (٣٨)، وأيضا: اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٢/١).

(٢) جزء من آية ٥٩ سورة النساء.

سفيان بن عيينة: ليس فى تفسير القرآن اختلاف إذا صح القول فى ذلك"[١] – وقال: أن يكون شئ اظهر خلافا فى الظاهر من الخنس[٢] قال عبد الله بن مسعود: هى بقر الوحش، وقال على: هى النجوم، وعقب سفيان بقوله: وكلاهما واحد، لأن النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، والوحشية إذا أردت إنسيا خنست فى الغيطان وغيرها، وإذا لم نز إنسيا ظهرت.

قال سفيان: فكل خنس.

قال إسحاق: وتصديق ذلك ما جاء عن أصحاب رسول الله (ﷺ) فى الماعون[٣] – يعنى أن بعضهم قال: الزكاة، وقال بعضهم: عارية المتاع.

قال عكرمة: الماعون أعلاه الزكاة، وعارية المتاع منه.

قال إسحاق: وجهل قوم هذه المعانى فإذا لم توافق الكلمة قالوا: هذا اختلاف.

وقد قال الحسن:- وذكر عنده الاختلاف فى نحو ما وصفنا- فقال: إنما أتى القوم من قبل العجمة"[٤] وقد اشرنا سابقا على أن الشاطبى فى "الموافقات" قد ذكر مبحثا كاملا فى اختلاف التنوع وجعله من قسم الخلاف الذى لا يعتد به ونص كلامه هو:" من الخلاف ما لا يعتد به وهو ضربان: **أحدهما:** ما كان من الأقوال خطأ مخالفا لمقطوع به فى الشريعة...، و**الثانى:** ما كان ظاهره الخلاف وليس فى الحقيقة كذلك، وأكثر ما يقع ذلك ألفاظ الكتاب والسنة، فتجد المفسرين

---

(١) انظر: هذا القول فى فتح القدير للشوكانى (١٢/١) مطبعة البابى الحلبى ج ثانية ١٣٨٣هـ.

(٢) بقصد قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة التكوير آية ١٥.

(٣) وردت كلمة الماعون فى قوله تعالى: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(٤) انظر مقالة محمد بن نصر المروزى فى كتبه: السنة ص(٧-٨) تحقيق/ أبى محمد سالم بن احمد مؤسسة الكتب الثقافية ط/١ ١٤٠٨هـ.

ينقلون عن السلف فى معانى ألفاظ الكتاب أقوالا مختلفة فى الظاهر، فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد، والأقوال إذا أمكن اجتماعها والقول بجميعها من غير إخلال بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه..." (١)

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد فصل هذه المسألة أتم تفصيل حتى قال اختلاف التنوع: ومنه ما يكون كل من القولين هو فى معنى القول الآخر ولكن العبارتين مختلفتان، ومنه ما يكون المعنيان متغايران، لكن لا يتنافيان فهذا قول صحيح وهذا قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر" (٢)

أما اختلاف التضاد: فهما القولان المتنافيان بحيث لا يمكن القول بهما معاً، فإذا قيل بأحدهما لزم منه عدم قول الآخر" (٣)

وقد قال شيخ الإسلام مشيراً إلى اختلاف التضاد – بعد أن ساق اختلاف التنوع–: "ومع هذا فلابد من اختلاف محقق بينهم كما يوجد مثل ذلك فى الأحكام" (٤) وقد قلنا إن الاختلاف بين السلف فى تفسير القرآن يرجع فى أغلبة إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد

وسنفصل القول فيه بعد بيان أنواع اختلاف التنوع–

---

(١) راجع: الموافقات للشاطبى (١٤٠/٤).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٢٩/١) وقد فصل هذه المسألة فى كتابه القيم" مقدمة فى أصول التفسير" (٣٨–٥٥)

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٠/١).

(٤) مقدمة فى أصول التفسير ص ٥٤.

أنواع اختلاف التنوع موضحة بالأمثلة:-

يظهر من تقسيم شيخ الإسلام الاختلاف فى التنوع أنه أربعة أنواع، يمكن أن نرجع اختلاف السلف فى التفسير إليها وهى إجمالاً:-

١- أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المعنى المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى. (١)

٢- أن يذكر كل مفسر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل المثال. (٢)

٣- أن يكون اللفظ محتملا لأمرين، إما لأنه مشترك فى اللغة أو لأنه متواطئ(٣)

---

(١) المصدر السابق (٤١-٤٣).

(٢) انظر: مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهانى (٦١) وانظر أمثلته لهذا النوع عنده (١٣٧-١٤٧-١٥٥) ق د. / أحمد حسن فرحات. دار الدعوة ط ١ ١٤٠٥هـ.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير (٤٠-٤١) وقد سماه شيخ الإسلام بتنوع الأسماء والصفات وقال: وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله (ﷺ) وأسماء القرآن فأسماء الله تعالى كلها تدل على مسمى واحد هو الله، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاد لدعائه باسم آخر من أسمائه (ﷻ) كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ الاسراء١١٠ فكل اسم من أسمائه سبحانه يدل على ذاته وعلى ما فى الاسم من صفاته. وكذلك أسماء النبي.(ﷺ) مثل محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب، وكذلك أسماء القرآن مثل الفرقان والبيان والهدى والشفاء ونحو ذلك فتشترك فى الدلالة على الذات وتختلف فى الدلالة على الصفات ... ثم قال: فالسلف كثير ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر كمن يقول: أحمد هو الحاشر=

٤- التعبير عن المعنى بألفاظ متقاربة لا مترادفة. [١]

وقد أشار الشاطبى إلى ثلاثة منها وضرب لها أمثلة. [٢]

توضيح هذه الأنواع بالأمثلة:-

النوع الأول: قال شيخ الإسلام: "أن يعبر كل واحد من المفسرين غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى"[١]

وقال الشاطبى: أن يذكر فى النقل أشياء تتفق فى المعنى بحيث ترجع إلى معنى واحد فيكون التفسير فيها على قول واحد، ويوهم نقلها على اختلاف اللفظ أنه خلاف محقق. [٢]

ويأتى هذا فيما يكون له أكثر من وصف دال عليه، وهذا وارد فى اللغة. كالسيف فهو المهند والصارم....الخ، فمن عبر عنه بالمهند نظر على وصفه بالهندية ومن عبر عنه بالصارم نظر إلى عدم انثنائه وقوته، فالتعبيرات وإن اختلفا فإنهما يدلان على ذات واحدة.[٣]

ومثال ذلك اختلاف عبارة المفسرين فى قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [٣] فقال بعضهم هو القرآن وقال آخرون هو الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فهذان القولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير وصف الآخر، كما أن لفظ" صراط"

=والماحى والعاقب، والقدوس: هو الغفور الرحيم أى أن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هى هذه" مقدمة فى أصول التفسير (٤٠-٤١) بإيجاز.

(١) راجع: الموافقات للشاطبى (٤/١٤٠-١٤٤) فقد ذكر فيه مبحثا كاملا عن اختلاف التنوع.

(٢) فصول فى أصول التفسير للطيار (٥٨).

(٣) سورة الفاتحة آية: ٦.

يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله (ﷺ) وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها[١]

توجيه ذلك: أن هذا: تنوع باعتبار تعدد الأوصاف واتحاد وحدة الموصوف وفى ذلك يقول مكى بن أبى طالب القيسى ت (٤٣٧هـ):- "وعلى هذا فسرت الآية، فقيل: الصراط المستقيم: القرآن وقيل: الإسلام وقيل: سنة النبي (ﷺ)، وهذا كله إشارة إلى شئ واحد وإن اختلفت العبارات" [٢]

وذكر الشاطبى له مثالا آخر وهو اختلاف المفسرين فى المراد بالسلوى فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾[٣] فقال:" كما قالوا فى السلوى: إنه طائر يشبه السمانى، وقيل: طير حمر كذا، وقيل: طير بالهند أكبر من العصفور[٤]

أقول:- ومن هذا الباب توسع السلف فى التفسير لشئ ذكر أحد أوصافه فى آيات أخرى وإن لم يدل عليها اللفظ مباشرة.

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير (٤٢-٤٣) وأيضا مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهانى ١٣٤.

(٢) مقدمة جامع التفاسير بتحقيق د/ أحمد فرحات (١٣٤).

(٣) سورة البقرة آية: ٥٧.

(٤) راجع الموافقات للشاطبى (١٤١/٤) وما بعدها.

ومن الأمثلة التى تدل على ذلك أيضا:قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾[1] فالمور يدل على تردد ويكون بذهاب ومجئ سريع على جهة الاضطراب[2] فجاء فى تفسير السلف: تدور السماء دوراً، مورها: تحريكها. ومورها: استدارتها وتحريكها لأمر الله، ومورها: موج بعضها فى بعض، ومورها: تشققها. [3]

وقد أجاد العلامة ابن عطية الأندلسى (ت٥٤١ هـ)، فى توجيهه لذلك الاختلاف: فقال: "وهذه كلها تفاسير بالمعنى، لأن السماء العالية يعتريها هذا كله"[4]

ولعلك لاحظت أن فى هذه الأقوال ما لا يدل عليه اللفظ مباشرة لكن المفسر عبر عن شئ سيقع للسماء وإن لم تدل عليه هذه اللفظة كمن فسر المور بالتشقق.

ومن هذه الأمثلة أيضا:- قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾[5] فقد قيل فى الدهاق ثلاث عبارات: الأولى: ممتلئة، والثانية متتابعة، الثالثة: صافية. [6]

---

(١) سورة الطور آية: ٩.

(٢) انظر فى ذلك: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢٨٤/٥) تحقيق عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية.

(٣) راجع: تفسير الطبرى (٢١/٢٧) ط ٣. شركة البابى الحلبى. مصر.

(٤) المحرر الوجيز لأبن عطية (٥٣/١٤) تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري- السيد عبد العال- مؤسسة دار العلوم- ط أولى.

(٥) سورة النبأ آية: ٣٤.

(٦) تفسير الطبري (٢٠/١٨/٣٠) وفصول فى أصول التفسير ٦٠.

والعبارة الأولى هى التى يدل عليها اللفظ مباشرة، وما بعدها أوصاف تابعة لكن لا يدل عليها اللفظ مباشرة حيث أن الكأس وصفت بأنها ملأى وهذا ما يدل عليه لفظ" دهاقا" مباشرة، ثم وصفت بالتبعية بأنها متتابعة على شاربيها وصافية.

النوع الثانى: أن يذكر كل مفسر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه. (١)

وقال الشاطبى:" أن يُذكر فى التفسير عن النبي (ﷺ) فى ذلك شئ، أو عن أحد من أصحابه أو غيرهم، ويكون ذلك المنقول بعض ما يشمله اللفظ، ثم يذكر غير ذلك القائل أشياء أخرى مما يشمله اللفظ أيضا، فينصهما المفسرون على نصها فيظن أنه خلاف... ومثل له الشاطبى بالمن- الوارد فى قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾(٢) فقال:" كما نقلوا فى المن أنه خبز رقاق، وقيل: زنجبيل، وقيل: الترنجبين، وقيل: شراب مزجوه بالماء. فهذا كله يشمله اللفظ لأن الله من به عليهم.... (٣)" فتوجيه ذلك الاختلاف إذا أن لفظ المن عام لأنه أريد به جملة نعم ذكر المفسرون بعضها منها على جهة التمثيل.

وقد مثل لهذا النوع شيخ الإسلام ابن تيمية بما نقل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤) فمن المفسرين من قال: السابق الذى يصلى

(١) مقدمة فى أصول التفسير (٤٣) وما بعدها.

(٢) سورة البقرة آية: ٥٧.

(٣) الموافقات (١٤٣/٤-١٤٤) بتصرف.

(٤) سورة فاطر آية: ٣٢.

فى أول الوقت، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه، والظالم لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار، ومنهم من قال : السابق بالصدقة والظالم قد ذكرهم فى آخر سورة البقرة[1] فإنه قد ذكر المحسن بالصدقة والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع، ومنهم من قال السابق الزكاة، والمقتصد الذى يؤدى الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا، ومنهم من قال الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق بالخيرات من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات وترك المحرمات.... وأمثال هذه الأقاويل. [2]

وتوجيه ذلك الاختلاف والجمع بين هذين الأقاويل هو: أن كل قول من هذه الأقوال إنما يذكر نوعاً مما يتناوله نص الآية لتعريف المستمع وتنبهه على نظائره ولا يضاد ما ذكره غيره، فهى ألفاظ عامة وما ذكر فى تفسيرها.

تنبيه:-

ويدخل ضمن هذا النوع ما يذكره المفسرون من أسباب النزول فهى كالمثال فإذا قيل نزلت هذه الآية فى كذا وقيل غير ذلك من أسباب فإنها كالأمثلة تدخل

---

(١) لعله يقصد آية (٢٧٤)﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴿٢٧٤﴾ ﴾وآية: (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴿٢٧٥﴾ ﴾.

(٢) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية (٤٣-٤٤) بتصرف.

فى حكم الآية وذلك مثل قولهم: إن آيات اللعان[١] نزلت فى هلال بن أمية، أو عويمر العجلانى، أو أن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله أو نحوه[٢].

فليس المراد أنها خاصة بمن نزلت فيه لا تتعداه على سواه بل هى فيه وفى نوعه وهو كالمثال لحكمها سواء كان ذلك عند الجمهور القائلين بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو عند القائلين- وعددهم قليل[٣]- بأن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، إذ ليس معنى ذلك عندهم أن حكم الآية مختص بمن نزلت بسببه فقط دون غيره وأن هذا الغير له حكم آخر بل حكمهم سواء وذلك قياساً لحالة غير أفراد السبب على صاحب السبب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالآية التى لها سبب معين عن كانت أمراً أو نهيا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره فمن كان بمنزلته وغن كانت خبراً بمدح أو ذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته"[٤] فالأسباب إذا كالأمثلة تدخل فى حكم الآية ولا تختص الآية بها. وهذان النوعان السابقان هما الغالبان على تفسير سلف الأمة كما صرح شيخ الإسلام ابن تيمية. [٥]

---

(١) آيات اللعان مذكورة فى سورة النور آية: (٦-١٠) وراجع: أسباب النزول للواحدى (٢٠٦-٢٠٧) ط /رضوان جامع رضوان. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٢) آية الكلالة وردت فى سورة النساء آية (١٧٦) وانظر: أسباب النزول للواحدى (١٢٨) وقد فسر أكثر العلماء الكلالة: بمن يموت وليس له ولد ولا والد....

(٣) راجع هذه المسألة فى : مباحث فى علوم القرآن لشيخنا أ. د/ القصبي زلط (٧٠-٧٢) المكتب الإسلامي. بيروت- ومقدمة فى أصول التفسير(٤٤).

(٤) مقدمة فى أصول التفسير(٤٧).

(٥) المصدر السابق(٤٩)- أقول ومن الأمثلة على ذلك النوع الثانى أيضاً ما جاء فى تفسير قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ التكاثر آية: ٨ حيث قيل فى النعيم عدة أقوال: منها الأمن والصحة والأكل والشرب وقيل: تخفيف الشرائع،=

النوع الثالث: أن يكون اللفظ محتملا لأمرين إما لأنه مشترك فى اللغة أو لأنه متواطئ[١]

ومن أمثلة المشترك اللغوى فى القرآن لفظ" قسورة" فى قوله تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾[٢] فقيل فى معناها: الرامى وقيل: النبل، وقيل الأسد، وقيل: القناص الرماة أو الرماة أو حبال الصيادين وقيل غير ذلك[٣] ومن هذا القبيل أيضا: لفظ "عسعس"الوارد فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾[٤] فقيل:

=وقيل الإدراك بحواس السمع والبصر...إلخ" فهذا المذكور كله أمثلة للنعيم. انظر: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (٦١٢/٨) وما بعدها. ط/ دار الفكر. بيروت٤٠٣هـ.

(١) المشترك : ما اتحد لفظه واختلف معناه كلفظ العين تطلق على العين الباصرة وعين الماء، والجاسوس. ويدخل فى المشترك اللغوى: أحرف التضاد وهى الألفاظ التى استعملها العرب للمعنى وضده كالظن يأتى بمعنى الشك ويأتى بمعنى اليقين، وكالجون يطلق على الأسود والأبيض والمتواطئ: لفظ منطقى يراد به نسبة وجود معنى كلى فى أفراده وجوداً متوافقا غير متفاوت كالإنسانية لزيد وعمرو فهو يدل على أعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها اشتراكاً متساويا فإن لم يكن متساويا فهو مشكك كالبياض بالنسبة للبن والثلج فهما متساويان فى البياض لكن أحدهما أشد من الآخر فى البياض.
والفرق بين المشترك والمتواطئ: أن المشترك لابد أن يكون وارداً عن العرب محكياً عنهم، أما المتواطئ فلا يلزم منه ذلك- أيضا: أن المتواطئ يلزم فى أفراده نسبة التساوي، أما المشترك فلا يلزم فيه ذلك..." انظر: فصول فى أصول التفسير (٦١) وأيضاً: مقدمة فى أصول التفسير (٤٩) بتصرف.

(٢) سورة المدثر آية: ٥١.

(٣) الدر المنثور للسيوطى (٣٣٩/٨).

(٤) سورة التكوير آية: ١٧.

عسعس بمعنى أقبل وقيل بمنعى أدبر، وقيل معناه: أظلم وقيل: إقبال سواده....إلخ[١] وأمثلة المتواطئ: الضمير الذى يحتمل عوده على شيئين أو أكثر، مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢] فقيل الضمير يرجع على النبي (ﷺ) واختار بعضهم رجوعه إلى جبريل (عليه السلام). [٣] ومن أمثلة الضمير أيضا: قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾[٤] فاختلف المفسرون فى مرجع الضمير فى قوله "فملاقيه" فقال بعضهم يحتمل رجوعه إلى الكدح وقال بعضهم يحتمل عوده إلى الرب[٥].

ومن هذا القبيل أيضا: اختلاف المفسرين فى أسماء الأجناس الواردة فى القرآن مثل اختلافهم فى المراد بقوله: ﴿ وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾[٦] فقيل هو: الصبح، وقيل فجر يوم النحر، وقيل: صلاة الفجر، وقيل فجر فى ذى الحجة، وقيل لفظ عام فى كل فجر....إلخ هذه الأقوال المتعددة"[٧] ومن أمثلة الأوصاف أيضا: اختلافهم فى المراد بقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ [٨] فقيل الخنس: البقر، وقيل: بقر الوحش، وقيل: الكواكب والنجوم، وقيل:

---

(١) الدر المنثور (٨/٤٣٣).
(٢) سورة النجم آية: ٩.
(٣) الدر المنثور (٧/٦٤٤-٦٤٥).
(٤) سورة الانشقاق آية: ٦.
(٥) انظر: الدر المنثور (٨/٤٥٦).
(٦) سورة الفجر آية (١-٢).
(٧) المصدر السابق (٨/٤٩٨).
(٨) سورة التكوير آية (١٥-١٦).

النجوم الدرارى التى تجرى تستقبل المشرق، وقيل الظباء إذا اكنست كوانسها... وغير ذلك"[١] وتوجيه ذلك الاختلاف: أنه يمكن أن تكون هذه الأقوال داخلة ضمن معاني الآية فتحمل عليها جميعا ويمكن أن يكون أحدها راجحاً فيكون هو المختار وما عداه فهو مرجوح، وهذا مبناه على صحة أن يراد بالمشترك جميع معانيه متى أمكن الجمع بينهما حيث أجازه قوم ومنه آخرون، وقد عقب شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك بقوله"فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالتها السلف وقد لا يجوز ذلك"[٢]

النوع الرابع: أن يعبر المفسرون عن المعنى بألفاظ متقاربة

ومثاله: ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴿٧٠﴾ ﴾[٣] فقد تعددت الأقوال فى معنى "تبسل" فقيل: تحبس، وقيل: ترتهن، وقيل: تفضح، وقيل: تؤخذ بما كسبت، وقيل: تجزى وقيل: تسلم..[٤]

فهذه الأقوال كلها ليست من اختلاف التضاد وإنما هى من قبيل التنوع وتقريب المعنى وكلها متلازمة ومتقاربة فمن لازم أخذ المشركين بالعذاب حسبهم وعدم تفلتهم منه وهذا هو مراد من قال: ترتهن، وأيضا من لوازم أخذهم بالعذاب أن يفتضح شأنهم....

---

(١) الدر المنثور للسيوطى (٨/٤٣٢).

(٢) مقدمة فى أصول التفسير(٥٠) وأيضا أسباب اختلاف المفسرين د/ الشايع (٢٢) بتصرف.

(٣) سورة الأنعام آية: ٧٠.

(٤) راجع هذه الأقوال فى تفسير النكت والعيون للماوردى (٤/١٣٠) ط ١ /١٤١٢هـ مؤسسة الكتب الثقافية.

ومن هذه الأمثلة أيضا: اختلاف المفسرين فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1] فقال بعضهم فى معنى "وما مسنا من لغوب" أى: سأمة، وقال بعضهم: عناء وقال ابن عباس ومجاهد: نصب.[2]

وكلها أقوال متقاربة ولا تضاد بينها، وما أجمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا المقام وهو يعقب على مثل هذه الأقوال:- "وجمع عبارات السلف فى مثل هذا نافع جداً فإن مجموع عبارتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين".[3]

تعقيب: أقول: كل هذه الأنواع التى ذكرناها من اختلاف التنوع وليست من اختلاف التضاد وهو اختلاف لا ضرر فيه وقد اشرنا سابقا على كلام الزركشى ولا مانع من إعادته هنا للتأكيد على هذا المعنى حيث قال: "يكثر فى معنى الآية أقوالهم واختلافهم ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ ويظن من لا فهم عنده أن فى ذلك اختلافا فيحكيه أقوالا وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل وقد يكون بعضهم يخبر عن الشئ بلازمه ونظيره والآخر بمقصوده وثمرته والكل يؤول إلى معنى واحد غالبا والمراد الجميع فليتفطن لذلك ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات"[4]

---

(١) سورة ق آية:٣٨.

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطى (٦١٠/٧) بتصرف.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير (٥٤).

(٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج٢ (١٥٩-١٦٠).

النوع الثانى: اختلاف التضاد

سبق لنا أن بينا معنى اختلاف التضاد وقلنا: هما القولان المتنافيان بحيث لا يمكن القول بهما معاً، فإذا قيل بأحدهما لزم منه عدم القول بالآخر.[١]

وقلنا: إن أغلب اختلاف المفسرين من قبيل اختلاف التنوع فإن اختلاف التضاد قليل عند المفسرين ولكل قول حجته، وقد أشار غليه ابن تيمية (رحمه الله) بقوله" ومع هذا فلابد من اختلاف محقق بينهم- أى السلف- كما يوجد مثل ذلك فى الأحكام"[٢]

ومن الأمثلة عليه:-

أ- اختلاف أهل التفسير فى المراد بالقروء فى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴿٢٢٨﴾ ﴾[٣] فإن" القرء" يراد به "الحيض" ويراد به "الطهر" ولا يمكن أن يكون المراد الاعتداد بهما معاً فى آن واحد لأن احدهما ينافى الآخر ويضاده، وقد ورد عن عائشة (رضي الله عنها) وابن عمر وزيد بن ثابت وغيرهم أن المراد بالأقراء: الأطهار، وعن مجاهد والضحاك وعمرو وعلى وابن مسعود وغيرهم أن المراد: الحيض.[٤]

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٣٤).

(٢) مقدمة فى أصول التفسير (٥٤).

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨.

(٤) راجع: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ج١(٦٥٦-٦٥٧) بتصرف.

فالأقوال هنا متعارضة يتعذر حمل الآية جميعاً، فلابد أن يكون المراد أحدها إذ لا يمكن أن تعتد المرأة بالطهر والحيض فى وقت واحد لأنهما متضادان ولا يمكن اجتماعها فى آن واحد.(١)

ب- ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(٢) فقد اختلف أهل التفسير فى المراد بالذبيح من ولد إبراهيم (عليه السلام) فذهب جمهور المفسرين على انه إسماعيل (عليه السلام) وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وجمع غفير، وهو الرأي الصواب وتؤيده الأدلة الصحيحة وسياق الآيات والقرائن والأحوال.(٣)

---

(١) هذا عند الجمهور القائلين بان المصيب واحد أما عند القائلين بان كل مجتهد مصيب فقد جعل ابن تيمية ذلك عندهم من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وهذا بعيد ومخالف للجمهور" انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٣٤) بتصرف.

(٢) سورة الصافات آية (١٠١-١٠٢).

(٣) الذبيح هو إسماعيل(عليه السلام) بلا شك فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق فى قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الصفات آية/١١٢) ولأن الله تعالى قال فى بشراه بإسحاق: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود آية ٧١) فدل على أن إسحاق غير الذبيح كما أفادت البشارة أن الله بشر بوجود إسحاق وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيا من الصالحين، فهى بشارات متعددة انظر: تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى(٦٥٢) بتصرف. ط مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة السابعة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

إلا أن بعض المفسرين كقتادة والحسن وابن جريح قالوا: إن الذبيح هو إسحاق. [1] وهذا راى بعيد جداً ومخالف للبشارة بإسحاق بعد ذكر الذبيح وعلى كل فهما تفسيران متنافيان يلزم من القول بأحدهما نفى الآخر فلا يعقل أن يكون الذبيح هو إسماعيل فى آن واحد. والله اعلم.

فائدة: مما هو متمم للفائدة أن نؤكد بعد الحديث عن أنواع الاختلاف على أن الأسباب هى منطلق الخوف والأنواع هى أوصاف آو أحكام على تلك الأسباب، ففى أسباب الاختلاف يكون الكلام فيه بحثا عن السبب المسوغ لوقوع الاختلاف بين المفسرين أما فى أنواع الاختلاف فيكون البحث فيه عن وصف ذلك السبب وبيان نوعه من تنوع آو تضاد آو غير ذلك، والنظر فى إمكان القول بالجميع على أنها تنوع أو ترجيح أحد الأنواع على أنه تضاد ونحو ذلك.

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى: تفسير ابن كثير(١٦/٤) ط/ دار إحياء الكتب العربية- وأيضا: تفسير النكت والعيون للماوردى (٦٠/٥-٦٢).

المبحث الثانى
أمور متصلة بأسباب الاختلاف فى التفسير
المطلب الأول
وجه الصلة بين أسباب الاختلاف وقواعد الترجيح

إن الصلة بين أسباب الاختلاف وقواعد الترجيح وطيدة وقوية وسنبينها بعد أن نلقى الضوء على حقيقة قواعد الترجيح وموضوعه والغاية منه بإيجاز:-

أولا: تعريف قواعد الترجيح عند المفسرين.

هى ضوابط وأسس أغلبية يتوصل بها على معرفة الراجح من الأقوال المختلفة فى تفسير كتاب الله تعالى.

ثانيا: موضوع" قواعد الترجيح"

موضوعها: أقوال المفسرين فى تفسير كتاب الله تعالى.

ثالثا: غاية" قواعد الترجيح"

غاية العلم بقواعد الترجيح هى: معرفة أصح الأقوال وأولاها بالقبول فى تفسير كتاب الله، ومن ثم العمل بها اعتقاداً إن كانت من آيات العقيدة ، وعملاً بالجوارح إن كانت آيات الأحكام العملية، وسلوكا وأدبا إن كانت من الأخلاق والآداب.

وأيضا: تصفية وتنقية كتب التفسير مما قد علق ببعضها من أقوال شاذة أو ضعيفة أو مدسوسة فيها لمذهب عقدى ونحو ذلك. وقواعد الترجيح تستمد مصادرها من: (أصول الدين، أصول الفقه، القواعد الفقهية، علوم الحديث، علوم القرآن، أصول التفسير، مقدمات كتب التفسير، تطبيقات المفسرين فى

تفاسيرهم[١] ويكون استعمال هذه القواعد فى حالتين: ترجيح أحد الأقوال على غيره أو رد أحد الأقوال.

والقواعد الترجيحية عديدة منها (ما يتعلق بالعموم فى القرآن، ومنها ما يتعلق بالقراءات أو رسم المصحف أو لغة العرب أو المعاني الشرعية فى القرآن، ومنها ما يتعلق بتصريف اللفظ أو التقديم والتأخير، أو ظاهر القرآن أو طريقة القرآن وعادته أو إجماع الحجة أو قول الأكثر من الصحابة والتابعين، ومنها ما يتعلق بالاستعمال العربي أو السنة النبوية أو التأسيس والتأكيد، أو عود الضمير إلى اقرب مذكور، أو توافق الضمائر أو التقدير وعدمه....إلخ"[٢]

العلاقة بين قواعد الترجيح وأسباب الاختلاف:-

لا يتأتى إعمال قواعد الترجيح إلا بعد وجود أقوال متعددة ومختلفة فى تفسير الآية فصار إعمال تلك القواعد يعين على اكتشاف سبب الاختلاف ويوضح أصل منشئه، وذلك أن التفسير المنقول إما أن يكون مجمعا عليه أولا، فإن كان مجمعا عليه فلا حاجة على الترجيح وذلك مثل تفسير اليوم الموعود بيوم القيامة فى قوله تعالى"﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ ﴾[٣] وإن كان مختلفا فيه فالاختلاف نوعان كما بينا سابق:-

(١) راجع ذلك: فى مختصر قواعد الترجيح عند المفسرين د/ حسين الحربى (١١-١٣) بتصرف دار ابن الجوزى . طبعة أولى ١٤٢٩هـ.

(٢) انظر: فصول فى أصول التفسير للطيار (٩٤-٩٨) بتصرف.

(٣) سورة البروج آية: ٢.

الأول: اختلاف تنوع وقد ذكرنا له أمثلة عديدة سابقا- وفى هذا النوع يعمل بقواعد الترجيح لبيان القول الأولى إن احتاج الأمر على ذلك وغن كانت الآية تحتمل المرجوح.(١)

الثانى: اختلاف تضاد:-

بقواعد الترجيح لبيان القول الصواب فى الآية كما ذكرنا سابقا القول الراجح فى المراد بالذبيح وأنه إسماعيل وليس إسحاق كما ادعى بعض المفسرين وقد رجح ذلك القرائن والأحوال وسياق الآيات ومن الأمثلة التى تؤكد على الصلة بين قواعد الترجيح وأسباب الاختلاف وان المفسرين استعملوا قواعد الترجيح فى بيان القول الصواب فى الآية التى ذكروا منها أقوالا متعددة :- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾(٢)حيث قيل فى السبيل قولان:

الأول: خروجه من بطن أمه.

الثانى: طريق الحق والباطل بيناه له وأعلمناه، وسهلنا له العمل به عقب على ذلك ابن جرير الطبري ت(٣١٠هـ) بقوله: "أولى التأويلين فى ذلك عندى بالصواب قول من قال: ثم الطريق وهو الخروج من بطن أمه ليسره وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه، وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه فى الأحوال فالأولى إن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده"(٣)

فهو هنا قد رجح أحد الأقوال على غيره بقاعدة الترجيح المتعلقة بالسياق القرآني ومن أمثلة رد أحد الأقوال بالسياق: أى أن فى السياق ما يدل على رد

---

(١) المصدر السابق(٩٤) بتصرف.

(٢) سورة عبس آية: ٢٠.

(٣) تفسير الطبري (٥٥/٣٠) شركة البابى. ط ثالثة.

هذا القول: تفسير الحسن لقوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1] قال: هما رجلان من بنى إسرائيل. ويرد عليه بسياق الآية فى قوله: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴿٣١﴾ ﴾ [2] ففيها دليل على أن ذلك وقع أول الأمر قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، أما فى زمن بني إسرائيل فلا يخفى دفن الموتى على أحد. [3]

(١) سورة المائدة آية :٢٧.

(٢) سورة المائدة: ٣١.

(٣) أضواء البيان فى إيضاح القرآن للشنقيطى (١/٧٥-٧٧) بتصرف. ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية- الرياض ١٤٠٣هـ.

المطلب الثانى

المراد بالاختلافات الكلية فى التفسير وموقفنا منها بإيجاز

مما هو متمم للفائدة أن نشير هنا ــ باختصار ــ إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) له تقسيم كلى للاختلاف فى التفسير تندرج تحت كل تحت كل قسم منه عدة أسباب أوجبته، وهما قسمان:-

القسم الأول: اختلاف من جهة الاستدلال.

فالقسم الأول: وهو الاختلاف المستند إلى النقل. فذلكم أن من العلم ما مستنده النقل فقط ومن العلم ما يعلم بغير ذلك.

فالعلم إما نقل مصدق وإما استلال محقق.

والنقل إما عن معصوم أو غير معصوم، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من الضعيف ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه.(١)

وأقول: إن هذا النوع الأخير الذى لا يمكن معرفة الصحيح منه لا فائدة فيه والبحث عنه لا جدوى من ورائه، وإنما كلام المفسرين فيه من فضول الكلام حيث إنه لو كانت هناك أدنى فائدة أو حاجة للعلم به لأطلعنا الله عليه ولقامت الأدلة القاطعة لبيان وتوضيحه وما أروع كلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطى ت (١٣٩٣هـ) فى هذا المقام حيث قال:" ففى القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت فى بيانها شئ والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه"(٢).

والنماذج والأمثلة على هذا النوع فى التفسير ما أكثرها ومنها اختلاف أهل التفسير فى اسم أم موسى(عليه السلام) أو لون كلب أصحاب الكهف أو اختلافهم فى

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير (٥٥) بتصرف.

(٢) أضواء البيان للشنقيطى (٤٣/٤).

البعض من البقرة الذي ضرب به قتيل بنى إسرائيل وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ومنه مكان كهف أصحاب الكهف وأسماؤهم، وأنواع طيور إبراهيم التي ناداها فأحياها الله له... وغير ذلك كثير. وهى أمور لا طريق إلى العلم بها إلا النقل الصحيح والثابت، وينبغى علينا أن لا نشغل أنفسنا بالبحث عنها فليس من وراء العلم بها أي فائدة وإن العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر، وأما ما يحتاج المسلمون الى معرفته فإن الله (ﷻ) قد نصب على الحق فيه دليلا عليه وحفظ النقل فيه وعرفت صحته ويندرج تحت هذا النوع الكلى ما يتعلق من أسباب الاختلاف بين المفسرين بالقراءات أو بحديث الرسول (ﷺ) أو بما نقل من لغة العرب.

وأما **القسم الثاني:** وهو ما كان الاختلاف فيه من جهة الاستدلال ويندرج تحته أنواع من أسباب الاختلاف حدثت لدى المتأخرين بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم (رضي الله عنهم) جميعا. وغالب أقوال التفسير الخاطئة من هذا النوع إنما يقع الخطأ فيها من جهتين:

الجهة الأولى: اعتقاد المعاني أولا ثم حمل ألفاظ القرآن عليها ولوي أعناق الآيات إليها من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان وهو نوعان:

أولا: نفى دلالة القرآن الصحيحة عن المعنى المراد

ثانيا: حمل الآيات على ما لم تدل عليه

من ذلك على سبيل المثال:-تفسير بعضهم لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

(١) سورة النساء آية:٣٦.

بتفسيرات لا تتفق مع دلالة النص القرآنى ومنها قولهم:"...وأما باطنها فالجار ذى القربى هو القلب والجار الجنب هو الطبيعة والصاحب بالجنب هو العقل المقتدى بالشريعة وابن السبيل هو الجوارح المطبعة لله وهذا باطن الآية"(١)

وعقب على ذلك التفسير الشاطبى (رحمه الله) بما مفاده"... وليس ثم دليل على صحة هذا التفسير لا من مساق الآية- فإنه ينافيه- ولا من خارج إذ لا دليل عليه كذلك بل مثل هذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن من كلام الباطنية.... وهذا كله إن صح نقله خارج عن ما تفهمه العرب ودعوى ما لا دليل عليه فى مراد الله بكلامه"(٢)

والجهة الثانية: تفسير القرآن بمجرد ما يصح لغة من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به وليس كل ما يصح لغة صح تفسيراً.(٣)

وهذا التعقيد والتنويع يشمل طوائف من أهل البدع الذين اعتقدوا مذهبا سلفاً ثم عمدوا إلى القرآن الكريم فتارة يؤولون الآيات المخالفة لمذهبهم وتارة أخرى

---

(١) هذا من كل سهل بن عبد الله التسترى فى تفسيره ص ٣٠ ويسمى القرآن العظيم لسهل بن عبد الله التسترى ط/ دار الكتب العربية. البابى الحلبى. مصر.

(٢) الموافقات للشاطبى(٤٠٣/٣) باختصار.

(٣) يدخل تحت أمثلة هذه القاعدة بعض أقوال المفسرين واللغويين فى تفسير القرآن على وجه تحتمله العربية غير أن سياق الآيات لا يحتمله وإن لم يكن ذلك منهجا لقائله كقول بعضهم فى تفسير قوله: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الرعد آية١٠) " مستخف" أى: ظاهر من قولهم: خفيت الشئ إذا أظهرته، قال ابن عطية: وهذا القول- وإن كان تعلقه باللغة بيناً- فضعيف لأن اقتران الليل بالمستخفى، والنهار بالسارب يرد على هذا القول" المحرر الوجيز لابن عطية(٢٠/١٠).

يحملون الآيات على آرائهم ومعتقداتهم، فمرة يخطئون فى الدليل والمدلول معا، ومرة يكون خطؤهم فى الدليل لا فى المدلول ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة وغيرهم.[١] والذين يخطئون فى الدليل لا فى المدلول هم الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى نفسها لكن القرآن لا يدل عليها مثل كثير من المتصوفة وبعض الوعاظ.[٢]

وفساد قول كل أولئك وظهور بطلانه يظهر تارة من العلم بفساد قولهم وانحراف مذهبهم وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن الكريم[٣] وبهذا يظهر ان من أعظم أسباب الاختلاف فى التفسير بعد عصر الصحابة والتابعين وأتباعهم البدع الباطلة التى دعت أهلها إلى تحريف الكلم عن مواضعه وتفسير كلام الله ورسوله (ﷺ) بغير ما أريد به وتأوله على غير تأويله تمذهبا وتعصبا.[٤] وسوف نبين عند الحديث عن أسباب الاختلاف المتعلقة بالتعصب المذهبى أو العقدى الأمثلة التى توضح ذلك-

(١) مقدمة فى أصول التفسير ص (٨،٧٩-٨٢).

(٢) مقدمة فى أصول التفسير (٩٢) وأيضا أسباب الاختلاف د/ الشايع (٢٩).

(٣) مقدمة فى أصول التفسير(٨٦).

(٤) المصدر السابق(٩١).

المطلب الثانى
"أسباب متعلقة بالسنة والآثار والقرائن"

أولاً: الاختلاف فى الرواية عن النبى (ﷺ) من ناحية البلوغ أو الثبوت أو الفهم، فقد يبلغ أحدهم حديث رسول الله (ﷺ) ولا يبلغ الآخر فيختلف من هنا تفسير كل مفسر عن الآخر، وقد يبلغه لكنه لا يثبت عنده بعد بلوغه إياه، وقد يبلغه ويثبت عنده لكنه يختلف فهمه له عن غيره.

ومن الأمثلة التى توضح ذلك:- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴿٤﴾ ﴾[2] فقد استند على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس (رضي الله عنهم) إلى هاتين الأيتين فى أن المرأة التى توفى عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين أو أطول الأجلين.أما ابن مسعود وغيره كأبى بن كعب والشعبى والسدى وغيرهم فيرون أن عدة الحامل وضع الحمل زادت مدته على أربعة أشهر وعشرا أو قصرت، وقد قال ابن مسعود من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية أنزلت فى النساء القصرى نزلت بعد الأربعة أشهر وعشرا ثم قال: أجل الحامل أن تضع ما فى بطنها"[3]

ويشهد لابن مسعود (رضي الله عنه) حديث سبيعة الأسلمية فقد توفى عنه زوجها فى حجة الوداع وهى حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها مالى أراك

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٤.

(٢) سورة الطلاق آية: ٤.

(٣) تفسير الطبرى ج ٢٨ (٩٢-٩٣).

متجملة؟ لعلك ترجين النكاح إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشرا. قال سبيعة: فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت فأتيت النبى (ﷺ) فسألته عن ذلك فأتاني بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى"[1] وقد رجع على وابن عباس (رضي الله عنهما) عن قولهما حين بلغهما حديث سبيعة الأسلمية فقد روى مسلم فى صحيحه أن أبا سلمة بن عبد الرحمن وابن عباس اجتمعا عند أبى هريرة وهما يذكران عدة المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال ابن عباس عدتها آخر الأجلين، وقال أبو سلمة: قد حلت، فجعلا يتنازعان ذلك قال: أبو هريرة: أنا مع أخى- يعنى أبا سلمة- فبعثوا كربيا (مولى ابن عباس) على أم سلمة يسألها عن ذلك، فجاءهم فأخبرهم ان أم سلمة قالت: إن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال وأنها ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) فأمرهم أن تتزوج. [2] ويشهد له أيضا ما رواه ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب قال: لما نزلت هذه الآية﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قلت يا رسول الله المتوفى عنها زوجها والمطلقة قال نعم"[3] فالشاهد أن عليا وابن عباس لم يبلغهما حديث سبيعة حين قالا برأيهما وقد رجعا عنه حين بلغهما فترتب على ذلك خلاف فى موضع العمل بالآية وليس فى دلالتها أو مفهومها.

(١) الحديث أخرجه مسلم فى الصحيح. كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل (١١٢٢/٢) حديث ١٤٨٤.

(٢) الحديث فى صحيح مسلم: كتاب الطلاق- باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل (١١٢٣/٢) حديث ١٤٨٥.

(٣) تفسير الطبرى (١٤٣/٢٨).

المثال الثانى: قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] فقد اختلف أهل التفسير فى المراد بقوله "إذ قضى الأمر" فقيل المعنى: قضى الموت انقطاع التوبة واستحقاق الوعيد وأشار إلى هذا مقاتل وغيره، وقيل: قضى العذاب عليهم. قاله الكلبى. [2] وذهب بعضهم على أن هذا تأكيد على استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار على وجه الخلود بلا موت وأن المراد ذبح الموت يوم القيامة وهذا هو التفسير الصحيح الذى ينبغى الاقتصار عليه لأنه هو الذى جاء به الحديث الصحيح عن رسول الله (ﷺ) فيما أخرجه البخارى وسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا فيقولون: نعم، هذا الموت- وكلهم قدرآه- ثم ينادى: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون فيقال: هل تعرفون هذا فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قدرآه- فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله (ﷺ) وانذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون" وأشار الى الدنيا. [3] فيفهم من هذا

(١) سورة مريم آية: ٣٩.

(٢) راجع تفسير النكت والعيون للماوردى (٣/٣٧٤)- وزاد المسير لابن الجوزى(٥/٢٣٥).

(٣) الحديث موجود فى الصحيحين: أخرجه البخارى فى كتاب التفسير- باب قوله "وأنذرهم يوم الحسرة" (٨/٣٢٥) ط/ المكتب الإسلامى- إستانبول. تركيا ١٩٧٩م- وذكره ابن حجر فى فتح البارى (٨/٢٨٢) حديث (٤٧٣٠) فتح البارى دار المطبعة السلفية بالقاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب جهنم أعاذنا الله منها صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ (١٨٤-١٨٥) المطبعة المصرية بالقاهرة.

الخبر الصحيح وقراءة النبى (ﷺ) لهذه الآية أن المراد بقوله" إذ قضى الأمر" أى ذبح الموت وخلود أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار. وهذا هو التفسير الصحيح الذى جاء به الحديث ويجب الاقتصار عليه وأما الأقوال المخالفة لما صح به الحديث بحجة انه لم يبلغهم الحديث أو أنه لم يثبت عندهم بعد بلوغهم إياه، أو أن لأحدهم فهما خاصاً للحديث فإن هذا الأمر يحتاج فى التثبت منه إلى دليل أو تفصيل وهذا يختلف بحسب حال القائل وسياق القول ومما يشهد لذلك:-

ما جاء فى تفسير قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1] قال الطبرى (رحمه الله): اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله بقوله: ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾[2] فقال بعضهم: بشرك وعمدتهم حديث ابن مسعود قال:" لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذى تعنون. ألم تسمعوا قول العبد الصالح"﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾[3] إنما هو الشرك"[4] وقال أخرون: بل معنى ذلك ولم

(١) انظر ما قاله الشنقيطى فى أضواء البيان (٤/٢٨١-٢٨٢).

(٢) سورة الأنعام آية: ٨٢.

(٣) سورة لقمان آية: ١٣.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الإيمان- باب ظلم دون ظلم. انظر الصحيح مع الفتح (١/١٠٩) وأيضا صحيح مسلم بشرح النووى فى كتابه الإيمان أيضا (٢/١٤٣) الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ دار الفكر بيروت.

يخالطوا إيمانهم بشئ من معانى الظلم وذلك فعل ما نهى الله عن فعله أو ترك مأأمر الله بفعله وقالوا الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم.... ثم قال الطبرى: وأولى القولين بالصحة فى ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله (ﷺ) [١] وبالتفسير النبوى قال عامة الصحابة والتابعين، ولا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين فى تفسير (الظلم) هنا بالشرك وقوفا مع الحديث الصحيح فى ذلك[٢] وذهب الزمخشرى ت (٥٣٨هـ)- كما هو مذهب المعتزلة -إلى منع تفسير الظلم بالشرك وفسره بالمعصية المفسقة حيث قال"ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس"[٣] وعقب أبو حيان الأندلسى ت (٧٤٥هـ) على ذلك بقوله:" وهذه دفينة اعتزال أى ان الفاسق ليس له الأمن إذا مات مصراً على الكبيرة.... وقد فسره الرسول (ﷺ) بالشرك فوجب قبوله"[٤] والذى حمل الزمخشرى على هذا التفسير ورده لتفسير النبى(ﷺ) هو ما اعتقده من اعتقاد فاسد فى مرتكب الكبيرة انه فى الآخر مخلد فى النار والأدلة على رد ذلك كثيرة مثبوتة فى كتب العقائد[٥] وليس هذا مجال الرد على معتقده، وعبارته تمنع أن يكون ما حمله على ذلك أن الحديث لم يبلغه أو لم يثبت عنده.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥٥/٧-٢٥٩) بإختصار يسير.

(٢) راجع فى ذلك: محاسن التأويل للقاسمى (٢٣٨٩/٦) ط دار إحياء الكتب العربية حلبى.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى (٣٣/٢) ط. البابى الحلبى. بمصر. الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ.

(٤) البحر المحيط لأبى حيان (٥٧١/٤) ط. دار الفكر بيروت. الأولى١٤١٢هـ.

(٥) من هذه الكتب على سبيل المثال: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ج (٤٤٢/٢) تحقيق /عبد الله التركى وشعيب الأرنؤوط ط مؤسسة الرسالة. بيروت الثانية١٤١١هـ.

تابع الأسباب المتعلقة بالسنة والآثار والقرآن

ثانيا: تفسير المبهمات أو المغيبات فى القرآن بالإسرائيليات الباطلة من المقرر أن الإسرائيليات: إما أن يعلم كذبها بما عندنا من الشريعة وإما أن يعلم صدقها بما عندنا من الشريع، وإما أن تكون من المسكوت عنه لكنها اقرب على الخرافة والكذب وتحليها العقول السليمة. وإما ان تكون من المسكوت عنه والعقول لا تحيل وقوعها فهذه أربعة أقسام للإسرائيليات **فالقسم الأول** هو ما علم كذبه بشهادة شرعنا له بالبطلان فهذا يجب رده ولا تجوز حكايته إلا على سبيل التحذير منه والتنبيه على على بطلانه. **والقسم الثانى** هو ما علم صدقه بشهادة شرعنا له بالصحة فإذا ذكر هذا القسم إنما يذكر استشهاداً لا اعتقاداً ولا حاجة لنا فيه استغناء بما ثبت فى شرعنا وإذا ذكر فى التفسير لا يكون هو المفسر للآية بل المفسر للآية هو ما ثبت فى شرعنا فانتفى كون الآية مفسرة بها ومحمولة عليها **القسم الثالث:** وهو ما كان من المسكوت عنه لكن العقول السليمة تحيلة ويغلب على الظنون كذبه وهو أقرب إلى الخرافة كجبل قاف المزعوم، والحوت "نون" الذى تحمل عليه الأرض. [1] **والقسم الرابع:** ما كان من المسكوت عنه ولا تحيله العقول السليمة ولا يغلب على الظنون كذبه فيجب فى مثل هذا التوقف فلا يحكم عليه بصدق أو كذب وعلى هذا القسم ينزل قول

(١) قال ابن كثير" وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله" حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فيما قد يجوز العقل فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل انظر: تفسير ابن كثير (٣٧٣/٧) ط الشعب. القاهرة تحقيق/ عبد العزيز غنيم وآخرون.

النبى(ﷺ) لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا...." [١]

وهذا القسم السابق هو أكثر الأقسام ذكراً فى كتب التفسير وغالبه فى تحديد مبهمات لا فائدة للأمة فى تحديدها كأسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم ومكان الكهف وكم عدد الدراهم التى اشترى بها يوسف (عليه السلام) أما ما تحتاجه الأمة فقد بينه لنا رسول الله (ﷺ) وشرحه وأوضحه عرفه من عرفه وجهله من جهله. [٢] فإذا كان حكم هذا النوع هو التوقف فى التصديق والتكذيب فلا يصح تفسير كلام بأمور مشكوك فى صدقها وكذبها فلربما حملت الآية عليها فكانت كذبا فيكون قد فسر كلام الله تعالى بالكذب حقيقة أو يكون قد خولف أمر النبى (ﷺ) وذلك باعتقادنا صدق هذه الإسرائيليات وأى تصديق لها أعظم من جعلها بيانا لمراد الله تعالى فيما أبهمه عن خلقه، وكلا الأمرين باطل فالقرآن حق ولا يحمل إلا على تفسير آيات القرآن بهذه الإسرائيليات[٣]- ويدخل تحت هذا السبب كل تفسير لأمر غيبى- ولو لم يكن من الإسرئيليات- ليس عليه دليل من القرآن أو السنة ومن الأمثلة على ذلك: ما جاء فى تفسير قوله تعالى فى قصة نوح

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب التفسير. سورة البقرة باب" قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا" (البقرة آية ١٣٦) من حديث أبى هريرة. انظر الصحيح مع فتح البارى (٢٠/٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٥/١) تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون ط دار أم القرى للطباعة والنشر. القاهرة الأولى ١٤٠٨- وتفسير ابن كثير (٣٧٣/٧) وفتح البارى (٢٠/٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدى (٩٨/١) ط مركز صالح بن صالح الثقافى بعنيزة ١٤٠٧هـ- وأيضا: عمدة التفسير أ/ أحمد شاكر (١٥/١) ط دار المعارف. مصر .

(عليه السلام) ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1] وتعددت أقوال المفسرين فى عدد الذين آمنوا مع نوح فحملهم معه فى الفلك فقال بعضهم كانوا ثمانية أنفس وقيل كانوا سبعة كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا ثمانين نفسا. [2] وهى أقوال كلها لا دلالة عليها من القرآن أو السنة بل هى مما أخذ من بنى لإسرائيل فالصواب أن لا تحمل الآية على أى منها فهو مما أبهمه القرآن ولم تقم حجة ببيانه، ورحم الله الإمام الطبرى حين قال- بعد أن ذكر الأقوال السابقة: " والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله " ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلا ولم يحدد عددهم بمقدار ولا خبر عن رسول الله (ﷺ) صحيح فلا ينبغى أن يتجاوز فى ذلك حد الله إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله أو اثر عن رسول الله (ﷺ)[3]

ثالثاً: مخالفة الآثار الصحيحة المروية فى تفسير الآية أو سبب نزولها.

من الأمثلة على ذلك: ما جاء فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾:" [4] فذهب عامة المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بهدهم على أن المسخ فى هذه الآية كان مسخا حقيقيا معنويا وصورياً مسخت قلوبهم ومسخت صورهم قردة، وقد روى هذا الآثر من طرق عن ابن عباس وقتادة والسدى وغيرهم وهو قول عامة

(١) سورة هود: ٤٠.

(٢) راجع هذه الأقوال فى : تفسير الطبرى (١٢/٤٢-٤٣).

(٣) المصدر السابق (١٢/٤٣).

(٤) سورة البقرة آية: ٦٥).

المفسرين بعدهم غالبا. وذهب مجاهد إلى أن المسخ كان معنويا لا صوريا مسخت قلوبهم ولم يمسخوا وإنما ضربة الله لهم مثل ما ضرب مثل الحمار يحمل أسفاراً. [١] وهذا القول من مجاهد ومن تبعه قول غريب [٢] خالف فيه عامة المفسرين والآثار الصحيحة المروية فى تفسير الآية قال القرطبى (رحمه الله) بعد أن ذكر قول مجاهد ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم" [٣] وقد رد هذا القول أهل التحقيق لأجل مخالفته لقول عامة المفسرين وللظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴿٦٠﴾ ﴾[٤] وقال الطبرى (رحمه الله) كلاما طويلا أنكر فيه قول مجاهد ومنه قوله" وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف وذلك أن الله أخبر فى كتابه انه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت كما اخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾ ﴾[٥] وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم، وأنهم عبدوا العجل فجعل توبتهم قتل أنفسهم، وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة فقالوا لنبيهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع هذه الآثار فى: تفسير الطبرى (١/٣٢٩-٣٣٢).

(٢) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرمانى (١/١٤٥) تحقيق شمران سركال العجلى. ط / مؤسسة علوم القرآن بيروت الأولى ١٤٠٨هـ

(٣) تفسير القرطبى (١/٤٤٣) ط دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٦٥.

(٤) سورة المائدة آية: (٦٠) وراجع: تفسير ابن كثير (١/١٥١).

(٥) سورة النساء آية: ١٥٣.

﴾[1] فابتلاهم بالتيه... [2] فثبت أن قول مجاهد هذا مخالف للآثار الصحيحة الواردة فى تفسير الآية والتى رواها الحجة من الصحابة والتابعين (ﷺ) أجمعين ومن هذا القبيل أيضا: مخالفة المفسرين للآثار الصحيحة المروية فى سبب النزول ومن الأمثلة التى توضح ذلك: ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ ﴿١٨٩﴾ ﴾[3] فقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية على أقوال منها: أن المراد بالبيوت المنازل المعروفة والإتيان هو المجئ إليها ودخولها قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما وقيل المراد بالبيوت النساء أمرنا بإتيانهن من القبل لا من الدبر. قاله ابن زيد وقيل: هى مثل، حيث أمر الناس أن يأتوا الأمور من وجوهها. وقيل المعنى: ليس البر أن تشذوا فى الأسئلة عن الأهلة وغيرها فتأتوا الأمور على غير ما يجب .... وقيل غير ذلك. [4] وأولى هذه الأقوال بالصواب هو القول الأول وذلك لما صح فى سبب النزول من حديث البراء بن عازب (ﷺ) قال: كانت الأنصار إذا حجوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها. قال فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه فقيل له فنزلت هذه الآية" ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ

(١) سورة المائدة آية: ٢٤.

(٢) تفسير الطبرى (١٧٣/٢) باختصار.

(٣) سورة البقرة آية: ١٨٩.

(٤) راجع هذه الأقوال فى: أحكام القرآن لابن العربى (١٤٢/١-١٤٣) والمحرر الوجيز لابن عطية (٩٩/٢-٩٨) وتفسير القرطبى (٣٤٤/٢-٣٤٥) والبحر المحيط (٢٣٧/٢) وغيرهم.

لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾[1] وقال القرطبى (رحمه الله):- بعد أن ذكر الأقوال فى الآية: القول الأول أصح هذه الأقوال لما رواه البراء (وذكر حديث البراء السابق فى سبب نزول الآية" إلى أن قال: وأما تلك الأقوال فتؤخذ من موضع آخر لا من الآية فتأمله"[2] وقال أبو حيان: بعد ان ذكر سبب نزول الآية: وهذه أسباب تضافرت على ان البيوت أريد بها الحقيقة وأن الإتيان هو المجيء إليها والحمل على الحقيقة أولى من ادعاء المجاز مع مخالفة ما تضافرت من هذه الأسباب[3] أى أسباب النزول.

فالشاهد إذاً:- انه ينبغى تفسير الآية بالآثار الصحيحة المروية فى سبب نزولها وعدم إغفال أو مخالفة هذا الجانب فإن الوقوف على سبب النزول وأحواله مما يعين على تفسير الآية تفسيراً صحيحاً. رابعاً: إغفال القول الذى تؤيده القرائن فى[4] فى سياق الآية مع التأكيد على انه ليس كل ما ثبت فى اللغة يصح حمل آيات التنزيل عليه

- هذا السبب مهم جداً لأنه يركز على أهمية مراعاة سياق الآية القرآنية وعدم إغفال القرائن الموجودة فيها فإذا تعددت أقوال المفسرين فى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة البقرة باب (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) انظر فتح البارى(٨/٣١).

(٢) تفسير القرطبى (٢/٣٤٦).

(٣) البحر المحيط لأبى حيان (٢/٢٣٧).

(٤) القرائن جمع قرينة وهى ما يوضح المراد لا بالوضع بل تؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه) انظر: الكليات معجم فى المصطلحات والفروق اللغوية لأبى البقاء الكفوى ط/ مؤسسة الرسالة بيروت الأولى ١٤١٢هـ- ق/ عدنان درويش، ومحمد المصرى.

تفسير آية من كتاب الله وكان فى السياق قرينة إما لفظة أو جملة أو غيرها تؤيد أحد الأقوال المقولة فى الآية فالقول الذى تؤيده القرينة هو أولى الأقوال بتفسير الآية من الأمثلة التى توضح ذلك:-

ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] فقد اختلف المفسرون فى الذى أخفاه النبى (ﷺ) فى نفسه فقيل: هو وقوع زينب فى قلبه ومحبته لها وهى فى عصمة زيد، وكان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ومستندهم فى ذلك روايات باطلة عن قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضمونها أن النبى (ﷺ) أتى زيداً ذات يوم لحاجة فأبصر زينب فوقعت فى قلبه وأعجبه حسنها فقال: سبحان مقلب القلوب وانصرف وتناقل هذه الروايات كثير من المفسرين. وقال أهل التحقيق: إن الذى أخفاه النبى (ﷺ) هو زواجه من زينب بعد أن يطلقها زيد فعاتبه الله على قوله لزيد ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾[2] بعد أن اعلمه الله أنها ستكون زوجه وأنه ما فعل ذلك إلا خشية أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه وهذا القول مروى عن على بن الحسين زين العابدين والسدى[3] وفى الآية قرينة تدل على صحة القول الثانى: وهى أن الله عاتب النبى (ﷺ) لإخفائه فى نفسه ما الله مبديه والذى

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب آية: ٣٧.

(٣) انظر هذه الروايات فى: تفسير الطبرى (١٣/١٢) ومعالم التنزيل للبغوى (٣٥٤/٦) وما بعدها تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون ط دار طيبة. الياض ١٤٠٩هـ- وذكرها الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣٨٤/٨) وغراها إلى ابن أبى حاتم وقال وتفسير السدى اوضح سياقا وأصح إسنادا- يعنى أصح إسنادا من رواية زين العابدين ووردت آثار آخرى اخرجها ابن ابى حاتم والطبرى ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها.

أبداه الله هو زواجه من زينب ولم يبد حب النبى (ﷺ) وشغفه بزينب وذلك قوله بعدها ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾[1] فهذه قرينة واضحة الدلالة على صحة ما قاله المحققون، ومبطله لما ادعى من حبه (ﷺ) لها وهذا هو ما رجحه جمهور المفسرين وأهل التحقيق، قال الامام البغوى بعد أن ذكر قول على بن الحسين السابق" وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله علم انه يبدى ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال "زوجناكها" فلو كان الذى أضمره رسول الله (ﷺ) محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على انه إنما عوقب على إخفاء ما اعلمه الله أنها ستكون زوجه له"[2] وهذا هو قول الأئمة المحققين من المفسرين وغيرهم[3]فرأينا أن القرينة هنا وهى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ رجحت القول بأن عاتب نبيه (ﷺ) لإخفافه فى نفسه ما الله مبديه وهو زواجه من زينب فحسب، ويضاف من الأدلة على تأييد هذا القول أيضا: أن القول فيه خدش لجانب العصمة النبوية وتجاوز على مقام النبوة وأن القول الثانى هو الذى يوافق جانب العصمة ومقام النبوة وذلك لما فيه من بيان وتشريع للأمة [4].

---

(١) سورة الاحزاب آية:٣٧ .

(٢) معالم التنزيل للبغوى (٣٥٦/٦).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربى (٥٧٧/٣)- وتفسير القرطبى (١٩٠/١٤)- والبحر المحيط (٣٥٦/٨) وتفسير ابن كثير (٤٢٠/٦) وفتح البارى (٣٨٤/٨). والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض (٨٧٩/٢-٨٨٢) تحقيق على البجاوى- ط حلبية ١٩٧٧م.

(٤) تفسير القرطبى (١٩١/١٤) وابن العربى (٥٧٧/٣).

ومن هذه الأدلة أيضا أن هذه الروايات ضعيفة سنداً ومتنا بل هى ساقطة[١] وأن النبى (ﷺ) كان يعرف زينب تمام المعرفة فهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحجبن منه (ﷺ) وهو الذى زوجها لزيد ولم تقع فى قلبه فكيف يتجدد له هوى لم يكن، حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة. [٢] يلحق بهذا السبب أيضا: أن بعض المفسرين قد يركز على ثبوت التفسير فى اللغة فحسب ويهمل مراعاة السياق القرآنى وأسباب النزول والقرائن التى حفت بالخطاب حال التنزيل ويعتمد على مجرد اللغة فحسب، ومن هذه الأمثلة التى توضح ذلك:- ما جاء عن أبى عبيدة معمر بن المثنى البصرى ت (٢١٠هـ) فى كتابه- مجاز القرآن وقد عرف بانه قد جعل القرآن نصا عربيا مجرداً ولم يراع فى تفسيره سياق الآيات أو القرائن أو أسباب النزول أو الآثار المروية عن الصحابة والتابعين فى التفسير.... وقد أنكر عليه هذا المنهج جماعة من تلاميذه ومعاصريه ومن بعدهم. [٣] من هذا القبيل ما ذكره أبو عبيدة فى تفسير قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾[٤] حيث قال: بكلمة من الله أى: بكتاب من الله تقول العرب للرجل: انشدنى كلمة كذا وكذا اى قصيدة فلان وإن طالت. [٥] وعقب الطبرى أن معنى قوله:﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(١)تفسير ابن كثير (٤٢٠/٦) فتح البارى (٣٨٤/٨).

(٢)الشفا (٨٨١/٢)- وابن العربى (٥٧٧/٣).

(٣) انظر فى ذلك تفسير الطبرى (٥٨/١)- والنحو وكتب التفسير لابراهيم رفيدة (١٥٤/١) ط. المنشأة العامة للنشر طرابلس. لبيبا الثانية ١٩٨٤.

(٤) سورة آل عمران آية: ٣٩.

(٥) انظر: مجاز القرآن لأبى عبيدة (٩١/١) تحقيق فؤاد سزكين. نشر مكتبة الخانجى . مصر.

بكتاب من الله من قول العرب انشدنى فلان كلمة كذا، يراد به قصيدة كذا جهلا منه بتاويل الكلمة واجتراء على ترجمة القرآن برآيه"[١] والذى عليه جمهور المفسرين فى تفسير الآية أن معنى مصدقا بكلمة من الله أى بعيسى بن مريم[٢] ومن هذه الأمثلة أيضا: قوله فى تفسير قوله تعالى".... ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٣] أى به ينجون وهو من العصر، وهى العصره- أيضا وهى المنجاة: ولقد كان عصرة المنجود. أى: المقهور المغلوب... [٤] وهذا القول صح لغة- غير انه ليس معنى الآية، وقد أنكره الطبرى بشدة وعقب عليه قائلا:" وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التاويل ممن يفسر القرآن برآيه على مذهب كلام العرب يوجه معنى قوله" وفيه يعصرون" ثم ذكر قول أبى عبيدة ثم قال:" وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئة خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين"[٥] والمعنى الذى يؤيده السياق وتؤيده القرائن أن معنى (يعصرون) أنهم يعصرون العنب والسمسم وما أشبهه ذلك أو يعصرون بمعنى يحلبون وسياق الآية يدل على هذين المعنين دون معنى ينجون ففيه دلالة على أنه عام خيرات حتى إنهم يعصرون الفواكه

(١) تفسير الطبرى (٣/٢٥٣-٢٥٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سورة يوسف آية: ٤٩.
(٤) المجاز لأبى عبيدة (١/٣١٣-٣١٤).
(٥) تفسير الطبرى (١٢/٢٣٣-٢٣٤).

لكثرتها أو يحلبون المواشى خامسا: الاختلاف فى مفهوم عصمة[١] الأنبياء وآثره على التفسير.

مما لاشك فيه أن الأنبياء والرسل (ﷺ) هم صفوة الله من خلقه وأن الله (ﷻ) قد اختارهم لتبليغ شريعته وحل رسالته، والله اعلم حيث يجعل رسالته، فالرسل هم أكرم الناس واتقاهم لله وأشدهم خشية له، وقدير فى تفسير بعض الآيات التى تتحدث عن قصص الأنبياء او أعمالهم أو خطاب الله تعالى لهم خوف بين المفسرين فى تفسيرها وقد لخصوا هذا الخلاف فى **أربع** صور:

الأولى: أن يراد قول فى تفسير الآية فيه وصف نبى بأنه ترك او فعل امراً خلاف الأولى به.

الثانية: أن يرد قول فى تفسير الآية يفهم منه وصف النبى بما لا يليق بمقام النبوة ومنزلة الرسالة، وقد يصح توجيه هذا القول إلى معنى آخر ليس فيه ذلك، لكن هذا التوجيه ليس الظاهر والمتبادر على الذهن من القول

الثالثة: أن يذكر قول على أنه وجه فى تفسير الآية لكنه متضمن للطعن فى عصمة النبوة ومقام الرسالة كأن يصف بعض الأنبياء بأوصاف ينزه عن مثلها كل مؤمن فضلاً عن نبى، أو يطعن فى رسالته أو تبليغه لها، أو يلفق له قصصاً وحوادث تطعن فى نبوته كنسبه إلى الخنا والفحش أو الخديعة والمكر.[٢]

---

(١) العصمة: هى صرف دواعى المعصية عن المعصوم، بما يلهم الله المعصوم من ترغيب وترهيب كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾انظر فى ذلك: إرشاد الفحول على تحقيق علم الأصول لمحمد بن على الشوكانى (٧٠) تحقيق /محمد سعيد البدرى ط مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت الأولى-١٤١٢هـ.

(٢) انظر: بحوث فى أصول التفسير للصباغ ص١٥١ طبعة المكتب الإسلامى بيروت الأولى ١٤٠٨هـ.

الرابعة: ما سوى تلك الصورة التى ليس فيها مما ذكر شئ وهى متفقة مع عصمة النبوة وعظم مكان الرسالة معظمة تلك الجوانب معتمدة على دلائل الكتاب والسنة وقواعد الشريعة وسياق الآيات وما صح من لغة العرب فهذه الصورة أقوالها هى المعتمدة فى تفسير الآية....

- فإذا تقرر ذلك فلا يجوز ان يفسر القرآن بتفسير فيه قدح فى مقام النبوة وله فى غير ذلك محمل صحيح وفى هذا المقام لا يفوتنا أن نؤكد على أنه قد اتفقت الأمة على الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله [١] ويستحيل علهم الكذب والكتمان والخطأ والسهو والإغفال والتورية والإلغاز فيما طريقة البلاغ والأداء عن الله، وقد حرسهم الله من كل سبب يقدح فى نبوتهم ودلالة معجزاتهم وما خصهم الله به من شرف المنزلة وعلو القدر[٢] وقد حكى غير واحد من أهل العلم الإجماع على عصمتهم من الكبائر ومما يزرى بمناصبهم كرذائل الأخلاق والدناءات وسائر ما ينفر عنهم، وهى التى يقال لها صغائر الخسة. [٣] وهم معصومون من الكفر والإشراك بالله قبل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨٩/١٠-٢٩٠) جمع عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم ط / المصرية.

(٢) راجع: البحر المحيط لأبى حيان (٢٦١/١) وأيضا البحر المحيط فى أصول الفقه للزركشى (١٩/٤) تحقيق/ عبد القادر عبد الله العانى وآخرون ط وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية الكويت الثانية ١٤١٣هـ.

(٣) راجع: البرهان فى أصول الفقه(٣١٩/١) لإمام الحرمين الجوينى تحقيق / عبد العظيم الديب- ط دار الوفاء الثالثة ١٤١٢هـ وانظر: البحر المحيط للزركشى (١٧٠/٤-١٧١) والإحكام فى أصول الأحكام للآمدى(٢٢٥/١) تحقيق سيد الجميلى ط. دار الكتاب العربى بيروت الثانية

النبوة وقد حكى غير واحد من أهل العلم الإجماع على ذلك. [١] وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الموضوع المتعلق بعصمة الأنبياء رأى جمهور المسلمين فقال:" فإنهم متفقون على أن الأنبياء معصومون فى تبليغ الرسالة ولا يجوز أن يستقر فى شئ من الشريعة خطأ باتفاق المسلمين على أن قال وللناس فى تجويز الخطأ عليهم فى الاجتهاد قولان معروفان وهم متفقون على أنهم لا يقرون عليه وإنما يطاعون فيما أقروا عليه لا فيما غيره الله ونهى عنه ولم يأمر بالطاعة فيه"[٢] وأجاز بعض العلماء وقوع بعض الصغائر منهم استشهاداً بظواهر بعض الآيات وحل آخرون ذلك على صدره منهم بتأويل قائم على اجتهاد فلا يكون ذنبا أو أنه من قبيل خلاف الأولى. [٣] على أن عصمة الأنبياء قاعدة ثابتة فى رد كل ما لا يليق بمقامهم وكريم خلالهم وعظيم خصالهم من ضعيف الأخبار وساقط الروايات الداخلة على كتب التفسير وغيرها. [٤]

ومن الأمثلة التى تدل على تأثير مفهوم العصمة على تفسير الآيات ما يأتى:

ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا لِلْعَلَمِينَ فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٩٣/١٠) ط دار الفكر بيروت ١٤١٠هـ والإتقان للسيوطى (٢٥٢/١) ط دار التراث القاهرة(١٤٠٥).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٣٧٢/٣-٣٧٣) تحقيق محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام ١٤٠٦هـ.

(٣) آيات عتاب المصطفى فى ضوء العصمة والإجتهاد ص (٦٥) د/ عواد المطر فى دار الفكر العربى القاهرة.

(٤) راجع أسباب الاختلاف د/ الشايع (١٢١).

﴿١١٠﴾ [1] فى كذبوا" قراءتان الأولى: " كذبوا بضم الكاف وتشديد الذال وكسرها والأخرى :"كذبوا بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفا. [2] فعلى قراءة التشديد يكون المعنى: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان من كذبهم من قولهم، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم، لما لحقهم من البلاء والامتحان وتأخر النصر وبهذا قالت عائشة (رضي الله عنها) وقتادة ورجحه النحاس. [3] وذهب الحسن إلى أن المعنى حتى إذا استياس الرسل من قومهم أن يؤمنوا بهم وأيقنت الرسل أن قومهم قد كذبوهم.

فعلى هذا يكون الضمير إن فى " وظنوا" و"كذبوا" يعود على أن الرسل وظن بمعنى اليقين. وقد ضعف الإمام الطبرى هذا القول لأجل مخالفته لجميع أقوال الصحابة فى الآية. [4] وأما على قراءة تخفيف الذال فذهب ابن عباس وابن مسعود وابن جبير وغيرهم على أن المعنى: حتى إذا استيأس الرسل من أن يستجيب لهم قومهم وظن القوم أن الرسل قد كذبوهم. [5] فعلى هذا يعود الضميران فى " وظنوا" و"كذبوا" إلى المرسل إليهم وهم القوم. [6] فروى عن

---

(١) سورة يوسف آية :١١٠

(٢) قراءة التشديد هى قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمر وابن عامر يعقوب الحضرمى من العشرة- وقراءة التخفيف هى قراءة حمزة وعاصم والكسائى وأبو جعفر وخلف العاشر من العشرة انظر: الكشف عن وجوه القراءات لمكى بن أبى طالب (١٥/٢) والنشر لابن الجزرى (٢٩٦/٢).

(٣) الصحيح مع الفتح (٢١٧/٨) وتفسير الطبرى (٨٦/١٣-٨٧) ومعانى القرآن للنحاس (٤٦٢/٣) ط جامعة ام القرى ١٤٠٨هـ.

(٤) تفسير الطبرى (٨٨/١٣).

(٥) المصدر السابق (٨٢/١٣-٨٥).

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٩٣/٩).

ابن عباس وابن مسعود وابن جبير وغيرهم أن معنى الآية حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر[١] فعلى هذا يكون الضميران فى" وظنوا" و"كذبوا" يعودان على الرسل[٢] وهذا القول الأخير مخالف لمفهوم العصمة لما فيه من وصف الرسل بسوء الظن برأيهم وهذا يقدح فى صالح المؤمنين فضلا عمن فضل بالنبوة والرسالة فمقام النبوة عظيم قد اصطفى الله له أفضل الخلق على الإطلاق وأعرفهم بالله وقد ردت عائشة (رضي الله عنها) هذا القول بما ألمحت له من رفعة مقام النبوة ولما علم من حال الأنبياء والرسل، وقد قالت فى التفسير الصحيح للآية كما أخرجه البخارى فى صحيحه ... هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك"[٣] وكذلك ضعف أئمة التفسير هذا القول لأجل مخالفته لتعظيم مقام النبوة ونسبة ما لا يليق إلى الرسل.[٤] المثال الثانى :- ومن الأمثلة التى تدل على ذلك أيضا: قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾[٥] فقد اختلف أهل التفسير فى المراد بهذه الآية وتعددت أقوالهم حتى أوصلها الفخر الرازى إلى أكثر من عشرين قولا، ومنها:

١- ووجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها.

---

(١) تفسير الطبرى (٨٦/١٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣٤٩/٩).

(٣) البخارى التفسير تفسيرسورة يوسف باب قوله:" حتى إذا استيأس الرسل (٢١٧/٨) فتح البارى.

(٤) المحرر الوجيز (٣٩٤/٩).

(٥) سورة الضحى آية: ٧.

٢- ووجدك ناسيا فأذكرك كما قال تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٨٢﴾ ﴾[١]

٣- ووجدك طالبا القبلة فهداك إليها.

٤- ووجدك محبا للهداية فهداك إليها.

٥- ووجدك متخيراً فى بيان ما نزل عليك فهداك إليه.

ففسر الضلال هنا بالنسيان والطلب والمحبة والتحير وقيل: إنه ضل عن مرضعته أو عن جده أو عن قافلته، وقيل: ووجد قومك فى ضلال فهداك إلى إرشادهم. [٢]... على غير ذلك من الأقوال القرينة من الآية والبعيدة عنها ودافع كثير منها مفهوم العصمة ودفع ان يكون المراد بالضلال ظاهره. وقد فسر الحافظ ابن كثير[٣] بأن جعلها كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[٤] ووافقه بعضهم حين قال:ووجدك ضالا فهدى" أى وجدك لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان فعلمك ما لم تكن تعلم ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق. [٥] وقد أجاد الطبرى حين فسر الآية صادقة

(١) سورة البقرة آية: ٢٨٢.

(٢) تفسير الرازى (٣٢/٢١٥-٢١٧) باختصار. وأيضا: تفسير الماوردى (٦/٢٩٤).

(٣) تفسير ابن كثير(٤/٥٥٩).

(٤) سورة الشورى آية: ٥٢.

(٥) تفسير السعدى (٨/٢٥١) المطبعة السفلية ومكتبها.

وواصفة وعامة حين قال :"ووجدك على غير الذى أنت عليه اليوم"[1] وهذا هو ما يتفق مع مفهوم العصمة أن اغلب الروايات التى وردت فى تفسير الآية ضعيفة وساقطه ومن قبيل الاسرئيليات والدخيل فى كتب التفسير . والله اعلم.

(١) تفسير الطبرى(٢٣٢/٣٠)- وأشار على ذلك فضيلة د/ الشايع فى أسباب الاختلاف(١٢٤).

المطلب الثالث
أسباب متعلقة بلغة العرب

أولاً: الاختلاف فى دلالات الألفاظ والنصوص لكون الافظ مشتركا سبق وأن أشرنا إلى شئ من هذا الموضوع عند الحديث عن انواع اختلاف التنوع ونقول إن المشترك هى اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين او أكثر دلالة على السواء عند اهل تلك اللغة سواء أكانت الدلالتان مستفادتين من الوضع الأول أو من كثرة الاستعمال أو استفيدت إحداهما من الوضع والأخرى من كثرة الاستعمال. (١) ومثاله: لفظ العين فإنه يطلق على الباصرة وعين الشمس وما ينبع من الماء والجاسوس وغير ذلك.

وتفصيل ذلك هنا: أنه قد يختلف المفسرون فى المراد ببعض الألفاظ المشتركة لأنها تحتمل أكثر من معنى ففسرها أحدهم بأحد هذه المعانى ويفسرها غيره بمعنى آخر وكلا التفسيرين جائز صحيح ما لم يقم دليل صحيح أو قرينة تقطع بان أحد المعنيين هو المراد كلفظ" قسورة" الذى يطلق على (الرامى) وعلى (الأسد) كما بينا سابقا–ولفظ النكاح الذى يطلق على العقد كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴿٤٩﴾ ﴾(٢) فالمراد بالنكاح هنا هو عقد النكاح ويطلق لفظ النكاح أيضا على الوطء كما فى قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴿٢٣٠﴾ ﴾(٣) وهذا من قبيل الاشتراك الواقع فى الاسم وقد يقع

(١) انظر: البحر المحيط فى أصول الفقه للزركشى (١٢٢/٢).
(٢) سورة الأحزاب من الآية: ٤٩.
(٣) سورة البقرة آية: ٢٣٠.

الاشتراك فى الفعل كقوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾[1] فإن لفظ عسعس يراد به لإقبال الليل وإدباره- كما أشرنا سابقا أيضا- وكما يقع الاشتراك اللفظى فى الأسماء والافعال فإنه يقع فى الحروف كحرف(من) فإن يأتى لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[2] وللتبعيض كقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴿٩٢﴾ ﴾[3] وللسببية كقوله سبحانه: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴿٢٥﴾ ﴾[4] وللجنس كقوله (ﷻ): ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴿٣٠﴾ ﴾[5] ولما استعمل القرآن الكريم هذه الألفاظ المشتركة ونحوها كانت سبباً لاختلاف العلماء فى التفسير.[6] وسنذكر بعض هذه الأمثلة على ذلك هذا، وموقفنا من هذا المشترك الوارد فى القرآن وله أكثر من معنى فى لغة العرب- يمكن أن نرجعه فى التفسير إلى أمرين:-

(١) سورة التكوير آية: ١٧.
(٢) سورة الإسراء آية: ١.
(٣) سورة آل عمران: ٩٢.
(٤) سورة نوح آية: ٢٥.
(٥) سورة الحج آية: ٣٠.
(٦) راجع- بحوث فى أصول التفسير د/ فهد الرومى (٤٧) بتصرف.

الأمر الأول: أنه يجوز ان يكون هذا المشترك من النوع الذى يصح أو يجوز حمل الآية على كل معانيه الواردة فيه لإمكان القول بها جمعيا ويكون هذا من باب التنوع والتعدد دلالة على الإعجاز القرآنى بإيجاز اللفظ مع سعة المعنى.

ومن هذا القبيل: لفظ" عسعس" فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾"[1] فقد فسر لفظ "عَسۡعَسَ" بانه أقبل وفسر بأنه أدبر (وهو ضد الأول) وبالرأى رأى قال: ابن عباس وقتادة وابن جبير، وبالثانى قال ابن عباس وابن زيد. [2] فيجوز حمل الآية على هذين المعنيين كما أجاز بعض اللغويين أن يراد بالمشترك كلا المعنيين فيكون المراد بالآية: أن الله (ﷻ) اقسم بإقبال الليل وإدباره فدل على هذين المعنيين بلفظة واحدة ولو جاء بهما بلفظهما لكان (والليل إذا اقبل وأدبر) [3]

ومن هذا القبيل أيضاً:- ما جاء فى تفسير قوله تعالى:﴿ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾[4] فقيل العتيق: عدة أقوال: فقيل بمعنى القديم وهو قول الحسن

---

(١) سورة التكوير آية: ١٧.

(٢) تفسير الطبرى (٧٨/٣٠) وأضواء البيان للشنقيطى (٧/١-٨).

(٣) انظر: فصول فى أصول التفسير للطيار (٦٤) وهناك من يمنع تفسير المشترك بكل معنيه ويقول:"... ومعرفة المشترك لما فيه من الإجمال وأخذ بيانه من غيره كتفسير عسعس بأدبر لأن عسعس مشترك بين لإقبال الليل وإدباره وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وفى قراءة " إذا أدبر" فدل على أن أفضل الليل السحر كما دلت على هذا أشياء كثيرة فيفسر بذلك عسعس وإن كان مشتركا انظر: إيثار الحق على الخلق لأبى عبد الله بن المرتضى اليمانى (١٦٥) دار الكتب العلمية بيروت ١٣١٨هـ.

(٤) سورة الحج آية: ٢٩.

وابن زيد وقيل العتيق المعتق من الجبابرة فلم يخضع لجبار من الجبابرة وأنه محرر لم يملكه أحدوبه قال مجاهد وقتادة وابن الزبير، وقيل: إن الله اعتقه من الغرق فى وقت الطوفان[1] وأقول: كلها معان يصلح وصف البيت بها وحمل المعنى عليها جميعا لعدم وجود التعارض بينهما وهو اختلاف تنوع وتعدد.

الأمر الثانى: ومن المشترك المتضاد الذى يمتنع حمل الآية على معنيه بل يلزم من القول بأحدهما نفى الآخر وقد اشرنا إلى ذلك سابق- عند الحديث عن اختلاف التضاد- ومثلنا له بلفظ (قرء) فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴿٢٢٨﴾ ﴾[2] فقد ورد فى لغة العرب استعمال القرء بمعنى الطهر وبمعنى الحيض ، روى المعنى الأول عن زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهرى وهو قول الشافعى ومالك واحمد فى رواية عنه، وروى المعنى الثانى (ان القرء بمعنى الحيض)- عمرو وعلى وابن مسعود وأبى موسى وعبادة بن الصامت وأبى الدرداء وعكرمة والضحاك وسفيان الثورى والسدى وهو أيضا قول أبى حنيفة وأحمد فى رواية. [3] وفى هذا المثال يمتنع حمل الآية على المعنيين معاً لأن القول بأحدهما يستلزم نفى الآخر فالمطلوب من المرأة المطلقة أن تتربص إما ثلاثة أطهار أو ثلاث حيض ولا يمكن الجمع بينهما.

(١) راجع: تفسير الطبرى (١٥١/١٧) وزاد المسير لابن الجوزى (٤٢٧/٥). بتصرف.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٨.

(٣) راجع أقوالهم فى: تفسير الطبرى (٤٣٩/٢) وما بعدها.

ومن ذلك القبيل أيضا: قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [1] ورد فى اللغة إخفاء الشئ بمعنى كتمه وإظهاره فهو من الأضداد[2] ولذا اختلف المفسرون فى المعنى المراد هنا فقيل: أخفيها أى أظهرها قاله أبو عبيدة وآخرون وقيل : المعنى عدم إظهار أحد عليها وهو قول ابن عباس وابن جبير وآخرون[3] ويمتنع هنا أيضا حمل الآية على المعنيين معاً لأن القول بأحدهما يستلزم نفى الآخر ولا يمكن الجمع بينهما لأنها متضادان.

ثانيا: الاختلاف فى وجوه الإعراب وآثره فى التفسير.

ومن أسباب اختلاف المفسرين، وأسرار تعدد أقوالهم الاختلاف فى ولا شك أن معرفة الإعراب وتوجيه الكلمات القرآنية أمر مهم بدرجة كبيرة لإصابة المفسر فى تفسيره لكتاب الله تعالى وذلك لأن الإعراب له دخل كبير فى توضيح المعانى وتجليتها وقد عنى به العلماء عناية فائقة حتى قال صاحب البرهان عن أهميته "والإعراب يبين المعنى، وهو الذى يميز المعانى، ويوقف على أغراض المتكلمين[4] ومن هنا فإن الإعراب تأثيره فى المعنى فليس بين الفاعل والمفعول به مثلاً إلى الضبط بالشكل ويكفر من لحن معتمداً فى قوله تعالى:﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ ﴿٣﴾ ﴾[5] لو قرأها بكسر اللام من "رسوله" لأنه

---

(١) سورة طه آية : ١٥.

(٢) انظر: ثالاثة كتب فى الأضداد للأصمعى والسجستانى وابن السكت ص (٢٠) وص(١٧٧) نشرها د/ أوغست هفنر. الطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين بيروت ١٩١٢م.

(٣) تفسير القرطبى (١١/١٨٢-١٨٥) وأسباب الاختلاف د/ الشايع (٨٣).

(٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/٣٧٧).

(٥) سورة التوبة من الآية: ٣.

تصير الكلمة معطوفه على لفظ المشركين الذين برئ الله منهم، فأى تحريف وكفر بعد هذا؟: فأنت تلاحظ أنه ليس بين الكفر والإيمان إلا حركة واحدة كل هذا يدل على ما للإعراب من تأثير فى المعان فالإعراب فرع كما يقولون.

ومثال الاختلاف فى وجوه الإعراب: اختلافهم فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[1] فقد تعددت أقوال المفسرين فى "والراسخون" تبعا لاختلاف الإعراب، فقيل إن قوله "والراسخون" عطف نسق على لفظ الجلالة والواو للعطف، ويكون المعنى على ذلك أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ويدخلون فى الاستثناء ويكون ذلك بناء على من وصل وعطف قوله" والراسخون فى العلم" على لفظ الجلالة.

وقيل إن قوله: "والراسخون فى العلم" كلام مستأنف والواو للاستئناف مرفوع بالابتداء والخبر فى قوله تعالى يقولون آمنا به" وهذا يستلزم الوقف على لفظ الجلالة ثم استئناف ما بعده ويكون المعنى على هذا أن المتشابه مما استأثر الله بعلمه وأن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه. وأقول: من روى عنه الوقف فإن بالتأويل هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ومن روى الوصل، وأن الراسخين ممن يعلم تأويله فمرادهم بالتأويل التفسير وهو الغالب فى اصطلاح

(١) سورة آل عمران آية: ٧.

المفسرين كابن جرير وغيره. (١) فنلحظ هنا أن الاختلاف فى وجوه الإعراب قد أثر على المعنى والتفسير، ولكل فريق أدلته ووجهة نظره.

ومن هذه الأمثلة أيضاً اختلافهم فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) فمن جعل "أربعين" منصوبة بمحرمة وجعل الوقف على قوله"يتيهون فى الأرض" كان المعنى أن التحريم والتيه مدته أربعون سنة وهو قول ابن عباس والربيع والسدى واختيار الطبرى (رحمه الله). (٣) ومن جعل" أربعين" مفعولا به منصوبا بالفعل بعدها: يتيهون، والوقف على قوله" محرمة عيهم" كان المعنى أن التحريم كان أبداً وأن التيه كان أربعين سنة. وهو قول عكرمة وقتادة ونافع ويعقوب والأخفش واختيار أبى عمرو الدانى. (٤)

فنلحظ هنا أن اختلاف الإعراب والوقف قد أثر على التفسير والمعنى فمن جعل قوله" أربعين" منصوبة بمحرمة وجعل الوقف على قوله" يتيهون فى الأرض" كان المعنى أن من عقوبة بنى اسرئيل التى حكم الله بها عليهم أن حرم عليهم دخول هذه القرية التى كتب الله لهم دخولها مدة أربعين سنة وأن تلك المدة أيضا تشمل على العقاب بالتيه حيث يتيهون فى الأرض لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، فعلى هذا الوجه الإعرابى قد عاقبهم بالتحريم والتيه معاً.

---

(١) راجع فى ذلك زاد المسير لابن الجوزى (٣٥٤/١)- والمكتفى فى الوقف والابتداء لأبى عمرو الدانى (١٩٦-١٩٧) تحقيق د/ يوسف مرعشلى- مؤسسة الرسالة ط. أولى ١٤٠٤هـ- وأسباب الاختلاف للشايع (٧٢) بتصرف.

(٢) سورة المائدة آية: ٢٦.

(٣) تفسير الطبرى (١١٦/٦) وما بعدها.

(٤) انظر: المكتفى فى الوقف والابتداء للدانى (٢٣٧).

وأما على الوجه الثانى وهو إعراب "أربعين" مفعولاً به مقدم منصوب بالفعل بعدها"يتيهون" والوقف على قوله " محرمة عليهم" فإن المعنى أنه قد حرم مدته أربعين سنة.

ثالثاً: أن يحتمل اللفظ القرآنى أكثر من اشتقاق أو تصريف فى اللغة. من أسرار اختلاف أقوال المفسرين أن يحتمل اللفظة القرآنية أكثر من تصريف فى اللغة، ويحمل كل واحد من المفسرين الآية على أحد التصريفات ومثاله: لفظة " يضار فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾[1] فتصريف لفظة"يضار" تحتمل أن يكون "يضارر" وتحتمل أن تكون "يضارر" فعلى الاحتمال الأول يكون النهى واقعا على أن يضر بالكاتب او الشهيد، أى أن الضرر يقع على الكاتب والشهيد وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والضحاك والسدى والربيع.وعلى الاحتمال الثانى: يكون النهى واقعاً على أن يضر الكاتب والشهيد أى أن الضرر يقع من الكاتب والشهيد وهذا قول طاووس والحسن وقتادة. [2]

فيفهم من ذلك: أن تعدد الأقوال فى الأصل الاشتقاق فى الكلمة" يضار "يضارر" بالفتح فيكون النهى هنا واقعا على أن يضر بالكاتب والشهيد (أى أن الضرر يقع من الكاتب والشهيد. وكلها معان محتملة لأن التصريف والاشتقاق يعيدان الألفاظ على أصولها فتتضح الألفاظ والمعانى المتفرغة عنها. وأقول إن القول الذى يؤيده تصريف الكلمة وأصل اشتقاقها هو الأولى بتفسير الآية، ومما يدل على ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى"﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ

(١) سورة البقرة آية: ٢٨٢.

(٢) تفسير الطبرى (١٣٤/٣) وما بعدها.

لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾[1] فقد اختلف المفسرون فى المراد بالأوابين فقال بعضهم: هم المسجون، وقيل: هم المطيعون المحسنون، وقيل هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وقيل: هم الذين يصلون الضحى، وقال آخرون هو الراجع من ذنبه، والتائب منه وقيل غير ذلك. [2]ولكن أولى بتفسير الآية القول الأخير لأن اشتقاق كلمة" أواب" يدل عليه، يقال: " قدآب يؤوب أوبا إذا رجع"[3] فالأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع يقال آب فلان إذا رجع، فهذا أولى الأقوال بالصواب لدلالة الاشتقاق عليه وأما الأقوال الأخرى فربما تتفرع عنه بعد ذلك.

رابعاً: تفسير اللفظ بمعانيه الظاهرة أو المحتملة.

من أسرار اختلاف المفسرين وتعدد اقوالهم المتعلقة بلغة العرب: تنوع الاستعمال العربى للفظة فى إرادة المعانى القربية والمعانى البعيدة فيحمل بعضهم اللفظة على المعنى القريب الظاهر، ويحمله آخرون على المعنى البعيد المحتمل، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾[4]فمن المفسرين من فسر الثياب بالمعروف المتبادر لأنه الذى يدل عليه ظاهر اللفظ وتكون طهارة الثياب بنظافتها وغسلها وتنقيتها أو بطيب كسب ثمنها وقد روى هذا عن ابن عباس وطاووس وابن سرين وابن زيد. ومنهم من فسر الثياب بالنفس وهذا المعنى بعيد غير متبادر، قال مجاهد وقتادة: طهر نفسك من الذنب، وقيل المعنى

(١) سورة الإسراء آية: ٢٥.

(٢) تفسير الطبرى (١٥/٦٨-٧٠) وزاد المسير (٥/٢٦).

(٣) معانى القرآن للزجاج (٣/٢٣٥) ط. عالم الكتب . بيروت.

(٤) سورة المدثر آية: ٤.

وعملك فأصلح وقيل: خلقك فحسن وقيل: قلبك فطهر قاله سعيد بن جبير ويشهد لهذا المعنى فى إدارة القلب بالثوب قول امرىء القيس. (١)

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ** وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
فإن يك قد ساءتك منى خليقة ** فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

قالوا: أى قلبى من قلبك.

وقيل المعنى: لا تلبس ثيابك على معصية وغدر وهذا مروى عن ابن عباس. (٢) وقد عقب الحافظ ابن كثير على ذلك بعد أن ساق الأقوال فى الآية: "وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه" ثم استشهد ببيتى امرئ القيس السابقين. (٣) وقد أجاد شيخ المفسرين الطبرى (رحمه الله) فى تعقيبه هنا حيث قال: "وهذا القول قاله ابن سيرين وابن زيد أظهر معانيه والذى قاله ابن سيرين وابن زيد فى ذلك أظهر معانيه والذى قاله ابن عباس وعكرمة وابن زكريا قول عليه أكثر السلف من انه عنى به: جسمك فطهر من الذنوب والله اعلم بمراده من ذلك"(٤) فنلحظ هنا أنه لا يوجد اختلاف حقيقى يعد من قبيل التعارض أو التضاد وإنما هو تنوع فى الاستعمال العربى للفظة القرآنية فسرها بعضهم بالمعنى الظاهر القريب وفسرها آخرون بالمعنى البعيد المحتمل، وقد رأينا شيخ المفسرين مع جليل مكانته قد توقف عن الجزم بالرأي الراجح أو القاطع رغم إمامته ووضوح ظاهر الآية.

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٣ دار المعارف بمصر.
(٢) انظر: جملة أقوالهم فى تفسير الطبرى (٢٩/١٤٤-١٤٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٤٠).
(٤) تفسير الطبرى (٢٩/١٤٧).

ومن هذه الأمثلة أيضا:- ما جاء فى تفسير قوله تعالى:﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[1] وذلك فى قصة شعيب (عليه السلام) حيث قيل فى المعنى المراد بالرجم قولان:

الأول: لرجمناك بالحجارة.

الثانى: لرجمناك بالسب والشتم.

فالأول هو المعنى القريب المتبادر للذهن قال ابن عطية: وهو الظاهر[2]

والثانى وإن كان محتملاً إلا أنه ابعد من الأول.

وتوجيه ذلك الاختلاف:- أن لفظ الرجم فى لغة العرب يطلق على المعنى القريب الحسى الظاهر وهو الرجم بالحجارة ويطلق أيضا على المعنى البعيد المعنوى المحتمل وهو الرجم بالسب والشتم والأذى وكلها معان محتملة وليست متضادة.

ومن هذه النماذج أيضا ما جاء فى تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[3] فقيل فى تفسير قوله"مهجوراً" أقوال متعددة: فقيل: هجروه بإعراضهم عنه فصار مهجوراً، وقيل: إنهم قالوا فيه هجراً أى قبيحاً قاله مجاهد، وقيل: جعلوه هجراً من الكلام وهو ما لا نفع فيه

---

(١) سورة هود آية: ٩١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٩/٢١٤). تحقيق المجلس العلمى بفاس المغرب ١٣٩٩هـ – مطبعة فضالة المحمدية المغرب.

(٣) سورة الفرقان آية: ٣٠.

من العبث والهذيان. قاله ابن قتيبة. [1] وأقرب الأقوال إلى المعنى هو القول الأول أن الهجر بمعنى الإعراض ويتسع ذلك ليشمل هجر التلاوة والحفظ والعمل به أو التخلق به والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه. ولا يمنع ذلك احتمال المعنى الثانى مع أنه ليس هو القول الظاهر أو القريب حيث إنه يدخل ضمن الاستعمالات اللغوية المتعددة لكمة الهجر وهو أن يراد به القبيح وخاصة أن المشركين قالوا فى القرآن قبيح الكلام وشنيع الأوصاف من كونه سحراً وشعراً وكهانة.... وإذا كان فى زعمهم كذلك كان للقول الثالث وجه بحسب ادعائهم وبئس ما قالوا خامسا:- أن تحتمل الآية التقديم والتأخير معاً.

بداية نقول الأصل فى ترتيب الكلام أن يوضع كل لفظ فى موضعه تقديما وتأخير وكل تقديم وتأخير فى الكلام هو خلاف الأصل، غير أن العرب كانت تتفنن فى كلامها ولها أساليب فى عرضه حسب ما تملى به مقتضيات الأحوال ومقاصد المتكلم ومن هذه الأساليب التى يستخدمها أحيانا حسب الأغراض أسلوب التقديم والتأخير وقد نزل القرآن على هذا اللسان العربى فجاء هذا الأسلوب فيه، فنجد بعض الألفاظ قدمت فى موضع وأخرت فى موضع آخر، ولم يختلف أهل التفسير فى بعض الآيات على أنها من باب المقدم والمؤخر، وهذا التقديم والتأخير الذى جاء فى القرآن لا يخل بأصل المعنى ولا يقدح فى البيان ولا يلتبس على السامع وذلك لوجود قرينة ودليل فى الكلام عليه وجواز التقديم والتأخير مشروط بوجود القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز سواء أكان من المقدم بنية التاخير أو غير ذلك وهذا هو الذى يتكلم عليه علماء المعانى والبيان

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣١٧) وتفسير الماوردى (٤/١٤٣) وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٣١٣) تحقيق السيد أحمد صقر- دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٣٩٨- وأيضا أسباب الاختلاف د / الشايع (٦٦) بتصرف.